المبادئ الأساسية للخدمة الاجتماعية الإسلامية

أ.د. محمد سلامة غباري

مقدمة

لقد ظهر اتجاه جديد بين الباحثين المسلمين يدعو إلى دراسة العلاقات والظواهر والنظم والأنساق الاجتماعية من منظور إسلامي لتكون هذه الدراسات نواة لفرع أكثر تخصصًا يعرف باسم الاجتماع الإسلامي ، ويصبح الاختلاف الأساسي بينه وبين « علم الاجتماع الديني » أن هذا الأخير يعالج الظواهر الدينية في كافة المجتمعات وبدون التقيد بدين معين ، بخلاف الاجتماع الإسلامي الذي يختص بدراسة العلاقات والظواهر والنظم والأنساق الاجتماعية من وجهة النظر الإسلامية البحتة .

ومن نفس المنظور ظهر علم النفس الإسلامي حتى غطى هذا الاتجاه الكثير من العلوم المختلفة ، وحيث إن تلك العلوم تعتبر القاعدة العلمية للخدمة الاجتماعية التي تعتمد في نموها وتطورها عليها ، فكان لا بد لها أن تتطور بدورها ؛ ولذلك كان لا بد أن تتأثر الخدمة الاجتماعية بالمنظور الإسلامي .

ومن هذا المنظور بدأت الخدمة الاجتماعية تقيم خدماتها في المؤسسات التي تمارس فيها الخدمة الاجتماعية التقليدية ، واعترفت بقصورها ، وبدأت تبحث لنفسها عن أساليب علاجية جديدة تحررها من تلك الأساليب التقليدية المستوردة من المجتمعات الغربية التي تختلف في عاداتها وقيمها واتجاهاتها عن مجتمعاتنا العربية اختلافًا كبيرًا .

ولذلك اتجه الباحثون المسلمون إلى الدين بعد أن زادت المشكلات الاجتماعية وانهارت العلاقات الإنسانية في هذه الفترة الحرجة التي تمر بها البشرية ؛ الفترة التي وصل فيها الفزع إلى غايته ، والقلق إلى أقصاه ، وظهر لها واضحًا إلى أي مدى تخبطت البشرية حين شردت عن اللّه وعن منهجه في الحياة .

لقد تخبطت البشرية ما بين عبادة العقل ، وعبادة الجسم ، وعبادة المادة ، وعبادة الحتمية التاريخية ، والحتمية الاقتصادية ، والحتمية الاجتماعية .. إلى آخر هذه الآلهة المزعومة التي يعبدها الناس في هذا الجيل ليهربوا بها من عبادة اللّه !! فكانت الشقوة التي

تفسد الأعصاب والنفوس ، وكان العذاب الذي يمس الأفراد والجماعات ، وكان الفزع الدائم من الدمار الرهيب .

وليس للبشرية علاج من هذه الشقوة المفسدة ، والعذاب المفزع إلا أن تعود إلى اللَّه لتجد الأمن والرعاية في حماه ، وتجد التوجيه الراشد في منهجه للحياة .

والعلاج الإسلامي هو المنهج الرباني المناسب للحياة بما فيه من وقاية وعلاج ، وهو الذي يقدم الأساليب العلاجية المناسبة الفعالة لكل المشكلات ، وفيه النجاة والخلاص ، فهو المنهج الرباني لتقويم البشرية ؛ لترشد وتتوازن ، وتسلك طريقها المستقيم في الحياة .

ولذلك كله اتجهت الخدمة الاجتماعية إلى ممارسة العلاج الإسلامي ، وتحمست لتطبيقه في المؤسسات الاجتماعية لعلها تجد فيه أسلوب العمل المناسب وطريق العلاج الأمثل بعد أن ضاقت بها السبل ، وعجزت أساليبها العلاجية التقليدية عن علاج المشكلات الاجتماعية .

والدين الإسلامي يقول : إنه من الممكن تبديل النفس البشرية وتغييرها جوهريًا بإمكانية إخراجها من الظلام إلى النور ، ومن حضيض الشهوات إلى ذروة الكمال الخلقي وذلك عن طريق المجاهدة والرياضة النفسية .

والإسلام لا يغفل أبدًا ؛ واقع الطبيعة البشرية ، وما ركب فيها من تنوع الطاقات والاتجاهات والمستويات ، لذلك لا يلزم الناس بصورة مثالية معينة ، مصبوبة في قالب لا تتعداه ، إنما هو يطلب من كل إنسان أن يبلغ حدود الكمال الممكن له هو حسب استعداداته وطاقته واتجاهاته . وكل ما يفرضه الدين الإسلامي هو المحاولة الدائمة لبلوغ ذلك الكمال الخاص في حدود الإطار المثالي العام ، وهنا تظهر واقعية الإسلام في علاج النفس البشرية .

والعلاج الإسلامي بأساليبه المختلفة وبمبادئه الأساسية التي يعرضها هذا البحث هو محاولة جادة للتأثير في تلك النفس البشرية بهدف تغييرها من نفسٍ ضالة ومنحرفة إلى نفس مسلمة مؤمنة ، تؤدي واجبها في الأرض ، متوكلة على اللَّه في السماء ، تسعى للرزق بكل ما أوتيت من قوة تاركة النتيجة للَّه ، تسير مع الأقدار مؤمنة بأنه لن يصيبها إلا ما كتبه اللَّه لها .

وهكذا يهتدي الأخصائي الاجتماعي بمنهج إسلامي واقعي نظيف ، يحسب حساب الإنسان بفرديته من حيث طاقاته وقدراته واستعداداته وصفاته ؛ ولذلك لا يكلفه بعمل

المستحيل بل يطلب منه المحاولة الدائمة لبلوغ الكمال الذي يستطيعه هو ، وهو بفطرته يستطيع الكثير .. والإنسان في نظر هذه الواقعية كائن ليس بالملاك ولا بالشيطان ، ولكنه قادر على الصعود إلى نظافة الملائكة ، وقادر على الهبوط إلى دنس الشيطان .

والطريق الواقعي لتنمية الإنسان ومعالجته ، هو رسم الصورة المتكاملة أمامه ، وتدريبه دائمًا على الصعود إليها والدنو منها بكل أساليب العلاج الإسلامي ، وبكل جهد ممكن ومستطاع .

والأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي في المؤسسات الاجتماعية ، يبغي الوصول في النهاية إلى إعداد الإنسان الصالح الذي يستمد من القرآن منهج حياته ، ومنهج سلوكه ، حيث يجد الوقاية ويجد العلاج .

وهو يعرف جيدًا أنه طريق شاقٌّ وصعبٌ ؛ لأنه طريق غير ممهد ، تحيط به ظروف وعوامل غير مساعدة ، ويعترضه عقبات كبيرة ، متمثلة في ألوان التربية السائدة في المجتمع ، التي ابتعدت كثيرًا عن طريق اللَّه ، وتاهت في معترك الحياة . ولكي ينجح الأخصائي الاجتماعي في ممارسة العلاج الإسلامي بشقيه الذاتي والبيئي فلا بد له من قاعدة رئيسية يرتكز عليها عند الممارسة والتطبيق ، هذه القاعدة هي مجموعة المبادئ الرئيسية للخدمة الاجتماعية الإسلامية ، وقد عرضها البحث بصورة مبسطة سهلة موضحة ببعض الأمثلة التطبيقية التي تساعد الممارس على الاستفادة منها وتطبيقها مع عملائه بمؤسسات الخدمة الاجتماعية بكل أنواعها وتخصصاتها ، وبخاصة مؤسسات رعاية الأحداث المنحرفين بصفة خاصة ومؤسسات رعاية الطفولة بصفة عامة ، وكذلك جميع المؤسسات التي تعمل في شتى مجالات الخدمة الاجتماعية .

المبدأ الأول : مبدأ الشورى

الشورى أصل من أصول الحياة في الإسلام ، وهي أوسع مدى من دائرة الحكم ؛ لأنها قاعدة حياة الأمة المسلمة [١] و « دائرة الشورى هي دائرة العلاقة بين المؤمنين جميعًا » .

وقد قال ابن تيمية : « لا غنى لولي الأمر عن المشاورة ، فإن اللَّه تعالى أمر بها نبيه فقال : ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، وقد روي عن أبي هريرة ﷺ قال : « لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول اللَّه ﷺ » ، وقد قيل : إن اللَّه أمر بها نبيه ﷺ لتأليف قلوب الصحابة ، وليقتدي به من بعده ،

---

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام .

وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحروب ، والأمور الجزئية وغير ذلك ، فغيره ﷺ أولى بالمشورة » (١) .

وقد أثنى اللَّه على المؤمنين بذلك في قوله : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى : ٣٦ - ٣٨] .

والشريعة الإسلامية وإن كانت آياتها المحكمة سدى الإسلام فلحمته الشورى ، فيها صار الاجتهاد حقًّا والإجماع دليلًا ، وهما جناحا التحضر السوي ، والكمال الاجتماعي ، والتقدم الإنساني السليم .

ولما لهذا المبدأ العظيم من أهمية فسنعرض بعض آراء المفسرين لآية : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ لنخرج منها بمؤشرات ودلالات نسير على هديها ونمشي في طريقها .

قال السيد محمد رشيد رضا صاحب تفسير المنار : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ ، أي الأمر العام الذي هو سياسة الأمة في الحرب والسلم والخوف والأمن وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية ، أي دم على مشاورتهم وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب في غزوة (أحد) وإن أخطأوا الرأي فيها ، فإن الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة بالعمل دون العمل برأي الرئيس وإن كان صوابًا ؛ لما في ذلك من النفع لهم . والمراد بالأمر الدنيوي الذي يقوم به الحكم عادة لا أمر الدين الذي مداره على الوحي دون الرأي ؛ إذ لو كانت المسائل الدينية ؛ كالعقائد والعبادات والحلال والحرام مما يقرر بالمشاورة لكان الدين من وضع البشر ، إنما هو وضع إلهي ليس لأحد فيه رأي لا في عهد النبي ﷺ ولا بعده .

وقال صاحب التفسير القاسمي : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ أي أمر الحرب وغيره تودُّدًا إليهم وتطييبًا لنفوسهم واستظهارًا بآرائهم وتمهيدًا لسنة المشاورة في الأمة .

وقد ساق العلامة فخر الدين الرازي وجوهًا أخرى في فائدة أمره تعالى له عليه السلام بمشاورتهم ؛ منها : أنه ﷺ وإن كان أكمل الناس عقلًا إلا أن علوم الخلق متناهية فلا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر بباله لا سيما فيما يفعل من أمور الدنيا فإنه ﷺ قال : « **أنتم أعرف بأمور دنياكم** » . ومنها أن الأمر بمشاورتهم لا لأجل أنه ﷺ محتاج إليهم ، ولكن لأجل أنه إذا شاورهم في الأمور اجتهد كل واحد منهم في استخراج ما عنده من الوجه الأصلح ، فتصير الأرواح

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية : السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية .

متطابقة متوافقة على تحصيل أصلح الوجوه . وتطابق الأرواح الطاهرة على الشيء الواحد مما يعين على حصوله وهذا هو السر عند الاجتماع والجماعة في الصلوات .

وقال صاحب تفسير المراعي : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ ، أي أنهم إذا حزبهم أمر تشاوروا فيما بينهم ليقتلوه بحثًا وتمحيصًا ولا سيما الحروب ونحوها ، وقد كان رسول اللَّه ﷺ يشاور أصحابه في كثير من الأمور ولم يكن يشاورهم في الأحكام ؛ لأنها منزلة من عند اللَّه .

أما الصحابة فكانوا يتشاورون فيها ويستنبطون من الكتاب والسنة ، وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة ، فإن النبي ﷺ لم ينص عليها حتى انتهى أمرهم إلى تولية أبي بكر ﷺ ، وتشاوروا في قتال من ارتدوا بعد وفاة الرسول ﷺ فاستقر رأي أبي بكر على القتال وكان فيه الخير كل الخير للإسلام والمسلمين .

وعن ابن عباس عن عمر ﷺ قال : لما أسروا الأسارى يعني يوم بدر قال رسول اللَّه ﷺ لأبي بكر وعمر : « **ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟** » فقال أبو بكر : يا رسول اللَّه هم العم والعشيرة أرى أن نأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار وعسى اللَّه أن يهديهم إلى الإسلام . فقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما ترى يا بن الخطاب ؟** » فقال عمر بن الخطاب : لا واللَّه ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم فتمكن فلانًا من فلان – قرابته – فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده فهوى رسول اللَّه ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت [١] .

كما كان رسول اللَّه ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث تطييبًا لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه ، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير فقالوا : يا رسول اللَّه لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعنا معك ، ولو سرت بنا برك الغماد لسرنا معك ، ولا نقول كما قال قوم موسى عليه السلام : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] ، ولكن نقول : اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون . وشاورهم أيضًا أين يكون المنزل ؟ حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم ، وشاورهم في أحد أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو ؟ فأشار جمهورهم بالخروج إليهم فخرج . وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذٍ فأبى ذلك عليه السَّعدان : سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، فترك ذلك .

---

(١) الإمام الشوكاني : نيل الأوطار ، مرجع سبق ذكره (ص ٣٢٠) .

ويقول العالم الشهير أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي في المشاورة والنصيحة : اعلموا أن المستشير وإن كان أفضل رأيًا من المشير فإنه يزداد برأيه رأيًا كما تزداد النار بالسليط ضوءًا . فلا تقذفن في روعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك فيمنعك ذلك عن المشاورة ، فإنك لا تريد الرأي للفخر به ، ولكن للانتفاع به ، وإن أردت الذكر كان أفخر لذكرك ، وأحسن عند ذوي الألباب لسياستك أن يقولوا : لا ينفرد برأيه دون ذوي الرأي من إخوانه ، ولا يمنعك عزمك عن إنفاذ رأيك وظهور صوابه لك عن الاستشارة .

ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام أُمر بذبح ابنه عزمة لا مشورة فيها ؛ فحمله حس الأب وعلمه بوقعه في النفوس على الاستشارة فيه ، فقال لابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات : ١٠٢] وهذا أحسن ما يرسم في هذا الباب (١) . ومن هنا يمكن القول : إن الفعل شاور من المشورة يقتضي ؛ **أولًا** : استشارة (مشكلة) ، **وثانيًا** : مشير (صاحب رأي) ، **وثالثًا** : مستشير (صاحب مشكلة) ثلاثة أركان تتفاعل وتمتزج ليخرج منها الرأي السوي الناضج الذي يجنب الإنسان وكذا المجتمع والأمة الانحراف والهلاك ، ويهدي إلى الأمن والرشاد .

وحيث إن الخدمة الاجتماعية تحرص على تدعيم الترابط والتضامن بين أبناء المجتمع وتحرص على بنائه وإنمائه ، فإن مبدأ الشورى يعد من أعظم المبادئ الإنسانية التي تعتمد عليها الخدمة الاجتماعية في تحقيق أهدافها الإسلامية .

وعندما يمارس الأخصائي الاجتماعي مبدأ الشورى عندما يخطط لعلاج المشكلات الاجتماعية فإنه يجعل من نفسه الركن الأول من أركان المشاورة وهو المشير صاحب الرأي والتفكير بعد أن يتم إعداده إعدادًا إسلاميًّا سليمًا ، بحيث يصبح صالحًا لتقديم المشورة لمن يطلبها من العملاء ، بل في أحيان كثيرة يتقدم هو بالمشورة حتى لو لم تطلب منه ، وذلك عندما يرى أن هناك أخطارًا محققة تهدد الفرد أو المجتمع وبذلك يصبح دوره كمشير معروضًا ومفروضًا في آن واحد ما دام هدفه صالح الفرد وصالح المجتمع .

والأخصائي الاجتماعي الإسلامي لكي ينجح في أداء دوره كمشير لا بد أن يكون واسع التفكير راجح التدبير ، أخلاقه كريمة وصفاته عظيمة ، حتى يستطيع أن يكسب ثقة عملائه مما يجعلهم يقبلون على طلب مشورته بما يحقق لهم العون والمساعدة المطلوبة .

---

(١) أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي : سراج الملوك (ص ١٣٢) .

وقد يكون العميل مشيرًا في أحيانٍ كثيرة عندما يشركه الأخصائي الاجتماعي في ذلك ، وعندما يطلب منه إبداء رأيه والاشتراك بتفكيره في كثير من الأمور التي تسهل نجاح عملية المساعدة ، وقد يكون للعميل رأي سليم وفكر ناضج ، يساعد الأخصائي في استكمال الكثير من الجوانب التي كانت خافية عليه ، فهو الأدرى بجوانب المشكلة وهو الذي سيتحمل المسؤولية الكبيرة في علاجها .

وقد يكون هناك مستشارون آخرون يعملون جنبًا بجنب مع العميل والأخصائي الاجتماعي مثل الخبراء والمختصين من أصحاب الرأي والمشورة ؛ مثل : رجل الدين ورجل القانون أو المختص النفسي أو الطبيب ... إلخ ممن يستعين بهم الأخصائي الاجتماعي في دراسة المشكلة وعلاجها ، وليس عيبًا أو نقصًا من الأخصائي الاجتماعي أن يستعين بغيره من زملاء المهنة ، ويستشيرهم برأيهم وأفكارهم ما دامت تساعده على الوصول إلى العلاج السليم ، أما الركن الثاني من أركان المشاورة وهو المستشير ، فهو العميل الذي يعاني من مشكلات عاقت توافقه وعطلت تفكيره وأصبح عاجزًا عن مواجهتها بمفرده مما دعاه لطلب المشورة من الأخصائي الاجتماعي فهو القادر على التفكير السليم وإعطاء المشورة المناسبة ؛ لأن تفكيره محرر من الضغوط التي يعاني منها العميل الذي أصبح في مسيس الحاجة لمن يقف بجانبه ويساعده على مواجهة تلك المشكلات وعلاجها .

وعندما يحضر العميل طالبًا المشورة يقابله الأخصائي الاجتماعي بالاحترام والحب النابع من أخوة الإسلام الصادقة التي يستمد منها العميل مشاعر الأمن والطمأنينة ، وعندها يثق في الأخصائي الاجتماعي الذي يضحي بوقته وجهده في سبيل مساعدته غير منتظر منه جزاءً أو شكورًا ، وعندها يشعر العميل بأن الأخصائي الاجتماعي يقدم له المشورة الصادقة بدافع أخوة الإسلام المخلصة ، وحينئذٍ يثق فيه ويطمئن إليه ، فيحبه ويطيعه ، وعندها يسهل التأثير عليه وتغييره ، والأخصائي الاجتماعي هدفه التأثير والتغيير بما يساعد على البناء والإنماء بالنسبة للفرد والجماعة والمجتمع ، وبذلك يساهم بدوره في بناء أمة إسلامية قوية حتى تستعيد مكانتها كخير أمة أخرجت للناس .

والركن الثالث من المشاورة هو الأمر المشار فيه وهو المشكلات التي يعمل في مجالها الأخصائي الاجتماعي ، وهي مشكلات كثيرة ومتنوعة ، فقد تكون مشكلات ذاتية تتصل بذات العميل وشخصيته ، وقد تكون مشكلات بيئية تتصل ببيئة العميل وأسرته وقد تجمع بين كلٍّ منهما .

والأخصائي الاجتماعي يشرك معه العميل في دراسة تلك المشكلات وتوضيح جوانبها المختلفة ، كما يشركه معه في تشخيصها وعلاجها ، وبذلك تتفاعل أركان الشورى الثلاثة تفاعلًا إيجابيًا بنَّاءً من خلال مبدأ إسلامي عظيم مارسه خير الأنبياء وخاتمهم .

والخدمة الاجتماعية عندما تمارس مبدأ الشورى كأحد المبادئ الإسلامية العظيمة التي تمارسها وصولًا إلى نجاح الأخصائي الاجتماعي في ممارسة العلاج الإسلامي ؛ ولذلك تسعى من وراء ممارسته وتطبيقه إلى تحقيق الأهداف الإنسانية العظيمة التي حققها رسول اللَّه ﷺ والتي يسعى الأخصائي الاجتماعي الإسلامي جاهدًا إلى تحقيقها .

وكان النبي ﷺ يستشير المسلمين في كثير من الأمور بهدف التأليف بين قلوبهم ونشر المودة والحب والجمع بينهم ، فتزداد ألفة الجماعة وتماسكها ، ويشعر كل فرد فيها بأن قوة الجماعة من قوته وعزها من عزه بعد أن أصبح يستشار في أمورها ويشترك في تقرير مصيرها .

ولذلك يشرك الأخصائي الاجتماعي عملاءه في كل خطواته المهنية ويستشيره أحيانًا كما يشير عليه أحيانًا كثيرة ، وبذلك ينتشر الود والحب ويجمع الإسلام بين القلوب المتآلفة ، ويثق المستشير فيمن يشير عليه ، فيعم الترابط والتضامن ، وتقوى شبكة العلاقات الاجتماعية بعد أن أصبحت علاقات محبة وأخوة إسلامية وعندها يسهل حل المشكلات وتثمر عملية المساعدة وينجح العلاج الإسلامي .

والأخصائي الاجتماعي عندما يمارس مبدأ الشورى مع عملائه فإنه يسعى إلى الاشتراك في تربيتهم تربية إسلامية ، فهو يشاركهم ويشاورهم في أمور حياتهم ويستفيد من آرائهم وأفكارهم ويسترشد بها في كثير من الأمور ، ويجعل من نفسه قدوة صالحة لهم حتى يخرجوا من تفاعلهم معه عقليًا بنضج أفكارهم ونمو شخصياتهم ، وبذلك يصبح كل فرد منهم عضوًا صالحًا في مجتمعه قادرًا على التوافق فيه بعد أن مارس العديد من الخبرات البناءة مع الأخصائي الاجتماعي بما يساعده ويعينه على أداء أدواره الاجتماعية بما يحقق توافقه في المجتمع .

وإذا نظرنا إلى أهداف الشورى العقلية فقد كانت التقاء العقول ، وتجميع الآراء ، ورفع مستوى التفكير ، واستخراج الرأي السليم ، أو تعديل الرأي الخاطئ عن طريق تفاعله مع الرأي السليم ، واستنباط أفكار جديدة أو آراء سديدة .

والأخصائي الاجتماعي يسعى لتحقيق تلك الأهداف عندما يقوم بممارسة مبدأ الشورى مع عملائه فيتفاعل عقله مع عقلهم ورأيه مع آرائهم ، فيرتفع مستوى تفكيرهم وتتعدل أفكارهم الخاطئة ويدرَّبون على التفكير السليم من خلال البرامج والأنشطة التي يحتويها العلاج الإسلامي .

وأخيرًا : هناك الأهداف النفسية التي حققها رسول اللَّه ﷺ من خلال مبدأ الشورى الذي مارسه بنفسه مع أصحابه وقواده وجنوده ، بل ومع عامة المسلمين حيث يهدف إلى تنمية الشعور بالذات وتنمية الثقة بالنفس حتى يشعر كل فرد في المجتمع الإسلامي بالعزة والكرامة والأمن والطمأنينة ، وبذلك نمت شخصياتهم وأصبح كل منهم عضوًا صالحًا في مجتمع صالح ، وصارت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس .

والأخصائي الاجتماعي الذي يمارس هذا المبدأ الإسلامي العظيم يهدف إلى تنمية ذات العميل وتقوية ثقته بنفسه بعد أن اهتزت تلك الثقة وضعفت تلك الذات ، وبعد أن صار يئن تحت وطأة الضغوط الداخلية النابعة من ذاته والمزلزلة لكيانه ، وبعد أن أصبح خائفًا مضطربًا ، ذليلًا مهانًا ، فلا عجب إذن أن تسعى المبادئ الإسلامية وعلى رأسها مبدأ الشورى إلى المشاركة مع العلاج الإسلامي في علاج اضطرابات الشخصية ، مما يؤدي إلى تنمية الشعور بالذات والثقة بالنفس ، وعندها يتحول الخوف إلى الأمن ، والاضطراب إلى الطمأنينة ، والمهانة إلى العزة ، والذلة إلى الكرامة .

المبدأ الثاني : العلم

العلم مبدأ آخر من المبادئ الإسلامية المهمة التي تحتاج إليها الخدمة الاجتماعية وهي تطبق العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية ، والأخصائي الاجتماعي لن يستطيع ممارسة الخدمة الاجتماعية الإسلامية إلا إذا اعتمد في ممارسته على المبادئ الإسلامية التي تساعده على فهم الإنسان واكتساب ثقته حتى يصبح قادرًا على التأثير فيه ، وبالتالي يستطيع تغييره ، والعلاج الإسلامي بمبادئه الإسلامية هو القادر على هذا التغيير .

« إن العلم للإسلام كالحياة للإنسان ، ولن يجد هذا الدين مستقرًا له إلا عند أصحاب المعارف الناضجة والألباب الحصيفة ، فطبيعة الإسلام تفرض على الأمة التي تعتنقه أن تكون أمة متعلمة ترتفع فيها نسبة المثقفين ، وتهبط أو تنعدم نسبة الجاهلين ؛ ذلك لأن حقائق هذا الدين – من أصول وفروع – ليست طقوسًا تنتقل بالوراثة ، أو تعاويذ تشيع بالإيحاء ، وتنشر بالإيهام إنها حقائق تستخرج من كتاب حكيم ، ومن

سنَّة واعية ، وسبيل استخراجها لا يتوقف على القراءة المجردة ، بل لا بد من أمة تتوفر فيها الأفهام الذكية ، والأساليب العالية ، والآداب الكريمة ، ولا شك أن مدارسة مناهج الإسلام تخلق في أي أمة تعني بها جوًّا من الفقه التشريعي القائم على الأوامر والنواهي – أي بالحقوق والواجبات – وجوًّا من الآداب الاجتماعية الدقيقة المتعلقة بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجوًّا من البحث الصحيح والاجتهاد المخلص لمد رواق الإسلام على ما تقدمه الأعصار من أقضية شتى وشؤون متجددة » (١) .

لذلك أعز اللَّه العلماء وآثرهم بكرامته وفضله ، قال رسول اللَّه ﷺ : « **من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل اللَّه له طريقًا إلى الجنة** » (٢) .

كما قال ﷺ : « **من خرج في طلب العلم فهو في سبيل اللَّه حتى يرجع** » (٣) .

وكذلك قوله ﷺ : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » (٤) .

والعلم كمبدأ إسلامي مهم لم تظهر أهميته في أحاديث رسول اللَّه ﷺ فقط ، بل تأكدت أهميته من خلال آيات بينات من كتاب اللَّه الكريم تأمر المسلمين بالعلم وتحضهم عليه ؛ منها قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] ، ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ، ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ، وقال الخبير العليم : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] ، ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الأعراف : ٥٢] ، ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت : ٤٩] ، ثم قال العزيز الحكيم : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ٣ ، ٤] .

وقد ذكر الإمام الغزالي في طلب العلم وفضيلة التعلم (٥) قول اللَّه تعالى : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٧] ، وأهل الذكر هم أهل العلم ، هم العلماء كما يرى الغزالي أن مهنة التعليم أشرف مهنة ، وأفضل صناعة يستطيع الإنسان أن يتخذها حرفة ، والتعليم في نظره هو : إفادة العلم ، وتهذيب نفوس الناس عن

---

(١) محمد الغزالي : خلق المسلم ، دار الكتب الحديثة ، ط . ٧ ، (١٩٦٤م) (ص ٣٦٤) .

(٢) صحيح مسلم .

(٣) سنن الترمذي .

(٤) سنن ابن ماجه .

(٥) إحياء علوم الدين ، (٩/١) .

الأخلاق المذمومة المهلكة ، وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة [١] .

والمراد بالعالم هو الصالح التقي ، العالم العامل بكتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ وإننا نعتقد أن الإسلام دين علم ونور ، لا دين جهل وظلمة [٢] ، والعلم الذي يُقبل المسلم عليه ، ويستفتح أبوابه بقوة ، ويرحل لطلبه من أقصى المشارق والمغارب ، ليس علمًا معينًا محدود البداية والنهاية . فكل ما يوسع منادح النظر ، ويزيح السدود أمام العقل النهم إلى المزيد من العرفان ، وكل ما يوثق صلة الإنسان بالوجود ، ويفتح له آمادًا أبعد من الكشف والإدراك ، وكل ما يتيح له السيادة في العالم والتحكم في قواه ، والإفادة من ذخائره المكنونة ولا شك أن في طلبه ما تجب معرفته حق اللَّه على الناس ، وحق الناس بعضهم على بعض . فإن هداية السلوك إلى الصالح العام كبيرة الأثر في تنظيم الجماعات وتوجيه السياسات [٣] .

ولذلك يفرض هذا المبدأ على الأخصائي الاجتماعي أن يكون عالمًا في أصول العلاج الإسلامي ومبادئه التي جاءت بها شريعة الإسلام ، وأن يكون محيطًا بأمور الحلال والحرام ، وأن يكون على دراية تامة بمبادئ الأخلاق ، وأن يكون متفهمًا لأنظمة الإسلام ، وقواعد الشريعة حتى يصبح عالمًا حكيمًا يضع الأشياء في موضعها ، ويربي عملاءه على أصولها ومقتضاها ، ويسير في طريق التربية الإسلامية ، ويطبق العلاج الإسلامي على أسس متينة من تعاليم القرآن ، وهدى محمد ﷺ .

ولذلك فإن الأخصائي الاجتماعي الذي يمارس الخدمة الاجتماعية الإسلامية ويطبق مبادئها لا بد أن يكون عالمًا عاملًا بعلمه [٤] ، أي تطابق أفعاله أقواله ، وأن يكون علمه غزيرًا ومتنوعًا فهو يدرس الكتاب والسنة ، ويدرس التاريخ الإسلامي ، والتاريخ الإنساني معًا ؛ ليعرف الطبيعة البشرية على الواقع ، وليعرف سنن اللَّه في خلقه ، كما يجب عليه دراسة علم النفس بشتى فروعه المختلفة ؛ لأنه يساعد على فهم الإنسان وغرائزه ، وميوله ، وتحليل عواطفه واتجاهاته ، بالإضافة إلى دراسة مختلف العلوم والمعارف الأخرى كقاعدة

---

(١) إحياء علوم الدين ، (١١/١ ، ١٢) .

(٢) محمد عطية الإبراشي : التربية الإسلامية وفلاسفتها ، مكتبة عيسى الحلبي ، (القاهرة ، ١٩٦٩م) ، (ص ٥٠) .

(٣) محمد الغزالي : خلق المسلم ، مرجع سبق ذكره ، (ص ٢٦٩) .

(٤) الحافظ أبي بكر البغدادي : اقتضاء العلم والعمل ، نقلًا عن كنوز السنة رسائل أربع ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني (ص ١٩٦) .

علمية ينطلق منها إلى فهم الإنسان ومشكلاته حتى يصبح قادرًا على مواجهتها وعلاجها . إن هذه المعارف المختلفة ليست نافلة في حياته ، ولا توجيهاته ، بل هي زاد لا بد منه لتصحيح فكره ، وضبط صلته بالعالم ، حتى إذا قدم النصح لعملائه يكون بوعي دقيق ، وحس بالغ ، وإدراك للهدف الذي تنطلق إليه ، كما يجب على الأخصائي الاجتماعي أن يتعلم الشر والخير لا ليقي نفسه فحسب من الشرور ، بل ليقي غيره من الناس كذلك .

إن غزارة الثقافة وسعة الأفق وروعة الحصيلة العلمية من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها الأخصائي الاجتماعي ، ولا بد له من أن يكون عالمًا في مهنته ، متبحرًا في معرفتها ، متقنًا لأساليبها الفنية ، متجملًا بمواصفاتها الخلقية ؛ لأنها مهنة الأنبياء والرسل ، ولذلك تحتاج لمواصفات لا تتوافر بسهولة في كل إنسان .

إن الأخصائي الاجتماعي عندما يطبق مبدأ العلم كمبدأ مهم من مبادئ الخدمة الاجتماعية الإسلامية يعرف جيدًا أن أول العلم الصمت ، والثاني الاستماع ، والثالث الحفظ ، والرابع العقل ، والخامس نشره ، وهو يطبق قول القائل : إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول .

والأخصائي الاجتماعي في كل ذلك لا يرجو إلا ربه ، ولا ينتظر من أحد جزاءً أو شكورًا ؛ ولذلك لا يستحي أن يتعلم ما لا يعلمه ويستزيد مما يجهله ، ولا يستحي إذا سُئل في شيء لا يعلمه أن يقول لا أعلم ؛ لأنه في ذلك يطبق قول علي عليه السلام : « لا يرجو عبد إلا ربه ، ولا يخاف إلا ذنبه ، ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم ، ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول اللَّه أعلم » .

المبدأ الثالث : المساواة

المساواة مبدأ مهم آخر من المبادئ الإسلامية التي تعتمد عليها الخدمة الاجتماعية الإسلامية وهي تسعى لممارسة العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية سواء كانت مشكلات فردية أو جماعية أو مجتمعية ، وهي نفس المبادئ التي اعتمد عليها الإسلام عندما عالج المشكلات الاجتماعية التي اعترضت ظهور الإسلام ، وبالرغم من صعوبتها وتعقدها وتعددها إلا أن الإسلام نجح في القضاء عليها والتخلص منها بفضل تلك المبادئ الإنسانية .

لقد جاء الإسلام ليحقق العدالة الاجتماعية لكل الناس معتمدًا في ذلك على تلك

المبادئ الإسلامية وعلى رأسها مبدأ المساواة ، ولن تتحقق عدالة اجتماعية كاملة ، ولن يضمن لها التنفيذ والبقاء ، ما لم تستند إلى شعور نفسي قوي باستحقاق الفرد لها ، وبحاجة الجماعة إليها ، وعقيدة تؤدي إلى طاعة اللَّه وإلى واقع إنساني أسمى ، وما لم تستند كذلك إلى واقع مادي يهيئ للفرد أن يتمسك بها ويحتمل تكاليفها ويدافع عنها ، ولن يستحقها الفرد بالتشريع قبل أن يستحقها بالشعور ، وبالقدرة العلمية على استدامة هذا الشعور ، ولن تحافظ الجماعة على التشريع إن وجد ، إلا وهناك عقيدة تؤيده من الداخل وإمكانيات عملية تؤيده من الخارج . وهذا ما نظر إليه الإسلام في توجيهاته وتشريعاته جميعًا .

ولما لمبدأ المساواة من أهمية بالغة في تحقيق العدالة الاجتماعية كاملة جاءت الشريعة الإسلامية من وقت نزولها بنصوص صريحة تقرر المساواة وتفرضها فرضًا ، فالقرآن يقرر المساواة ويفرضها على الناس جميعًا في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وبذلك يشير اللَّه ﷻ إلى أصل المساواة في الطبيعة البشرية بين الأفراد جميعًا ، ثم ينفي أن يكون اختلاف الناس إلى شعوب وقبائل ومجموعات مبررًا للمفاضلة بين الأفراد ، بل ينظر إلى هذا الاختلاف على أنه سبب للتعارف واللقاء وليس للتخاصم والتنافر ، ويقرر سببًا واحدًا للمفاضلة هو التقوى بعد أن كرم الطبيعة الإنسانية كلها في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، ولكنه ﷻ فضَّل بعضهم على بعض بكثرة التقوى ، وكثرة التقوى ليست بحكم أحد من الناس وإنما بعلم اللَّه ذاته وخبرته [١] .

ورسول اللَّه ﷺ يؤكد هذا المعنى في قوله : « **الناس سواسية كأسنان المشط الواحد لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى** » ، ثم يؤكد هذا المعنى تأكيدًا في قوله ، « **إن اللَّه قد أذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم ؛ لأن الناس من آدم وآدم من تراب وأكرمهم عند اللَّه أتقاهم** » ويلاحظ على هذه النصوص أنها فرضت المساواة بصفة مطلقة ، فلا قيود ولا استثناءات ، وأنها المساواة على الناس كافة ، أي على العالم كله ، فلا فضل لفرد على فرد ، ولا لجماعة على جماعة ، ولا لجنس على جنس ، ولا للون على لون ، ولا لسيد على مسود ، ولا لحاكم على محكوم [٢] .

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة ، مرجع سبق ذكره (ص ٢٧٣) .

(٢) عبد القادر عودة : التشريع الجنائي الإسلامي ، مرجع سبق ذكره (ص ٢٦) .

وقد سبقت الشريعة الإسلامية القوانين الوضعية في تقرير المساواة بأحد عشر قرنًا ، ولم تأتِ تلك القوانين الوضعية بجديد حين قررت المساواة وإنما سارت في أثر الشريعة الإسلامية واهتدت بهداها .

ولم تكن المساواة في الإسلام كلامًا يقال أو شعارًا يرفع ، وإنما كان مبدأ يمارس ، وأول من مارسه والتزم بتطبيقه النبي ﷺ متأدبًا بأوامر ربه الذي كان دائمًا يذكر الناس بأنه بشر كسائر البشر ، وكان محمد ﷺ بذاته يكرر هذا المعنى وهو النبي العظيم الذي كان محبوبًا من قومه مبجلًا ، ولكن خيف أن ينقلب ذلك الحب وهذا التبجيل إلى تأليه أو قدسية لا تكون إلا للَّه . فها هو ذا يقول لقومه : « **لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد اللَّه ورسوله** » (١) ، ويقول وقد خرج على جماعة فوقفوا تبجيلًا : « **من سره أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار** » (٢) ، وفي موقف آخر قال لقومه : « **يا معشر قريش لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا . يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا . يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من اللَّه شيئًا ، ويا صفية عمة رسول اللَّه لا أغني عنك من اللَّه شيئًا** » (٣) .

وحين أصابت محمد الإنسان لحظة حرص بشري ؛ فانصرف عن الرجل الفقير الأعمى ابن أم مكتوم إلى الوليد بن المغيرة سيد قومه ، عاجله العتاب الشديد الذي يشبه التأنيب ليرد للمساواة المطلقة معاييرها الكاملة .

ومبدأ المساواة أمام شريعة اللَّه مقرر في الإسلام بأجلى بيان ؛ آخذًا من المساواة العامة للمسلمين ، ومن نصوص أخص من ذلك قول رسول اللَّه ﷺ : « **واللَّه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها . إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا الحد** » ، وكان عليه الصلاة والسلام قد استشفع لديه في عدم توقيع الحدِّ فاستنكر ذلك وصاح بمحدثه : « **يا أسامة أتشفع في حدٍّ من حدود اللَّه ؟** » (٤) وعندما تجادل الصحابي المعروف أبو ذرٍّ الغفاري مع أحد الزنوج . واشتد به الغضب فقال له : « يا بن السوداء » وسمع الرسول ﷺ هذه الكلمة النابية . فأنكرها أشد الإنكار وقال لأبي ذرٍّ : « **أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية** » .

---

(١) البخاري .
(٢) أبو داود والترمذي .
(٣) متفق عليه .
(٤) محمد فتحي عثمان : أصول الفكر السياسي الإسلامي (ص ٢٦٧) .

ومما قال له : « **طف الصاع . طف الصاع . ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح** » (١) وقد ندم أبو ذرٍّ على فعلته . وأثرت كلمات الرسول ﷺ في نفسه ، فألصق خده بالأرض وقال للأسود : « قم فطأ على خدي » وبهذا التعليم البين الحاسم محا الإسلام من المجتمع كل نزعة إلى التفرقة العنصرية (٢) .

ولم يكتف الرسول ﷺ بممارسة هذا المبدأ مع أصحابه وأقاربه وأهل بيته ، بل امتد إلى ممارسته مع جلسائه من عامة المسلمين ، وعلَّمهم كيف يطبق هذا المبدأ على الجميع دون أن يفرق بين غني أو فقير ولا قوي أو ضعيف ، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه سأل جليسًا له وقد مر بهما رجل **ما رأيك في هذا** ؟ فقال : هذا رجل من أشراف الناس ، هذا واللَّه حري إن خطب أن يزوج ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن تسمع لقوله . فسكت رسول اللَّه ﷺ ثم قال : « **ما رأيك في هذا** ؟ » فقال : يا رسول اللَّه ، هذا رجل من فقراء المسلمين . هذا واللَّه حري إن خطب ألا يزوج ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله . فقال رسول اللَّه ﷺ : « **هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا** » (٣) .

وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال : رأى سعد أن له فضلًا على من دونه ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « **هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم ؟!** » (٤) ، وقال : « **ابغوني في ضعفائكم ، إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم** » (٥) .

وهكذا يتتبع الإسلام كل ناحية من حياة الناس الوجدانية والاجتماعية ؛ ليؤكد فيها معنى المساواة توكيدًا ، وما كان في حاجة كما قلنا لأن يتحدث عن المساواة لفظًا وصورة ، بعد ما حققها معنًى وروحًا ولكنه يحرص على المساواة حرصًا شديدًا ، ويريدها إنسانية كاملة غير محدودة بعنصر ولا قبيلة ولا بيت ولا مركز .

والخدمة الاجتماعية عندما تمارس العلاج الإسلامي لمعالجة المشكلات الاجتماعية فإنها تلتزم بمبدأ المساواة ، وتمارسه مع كل الناس الذين يتعاملون مع الأخصائي الاجتماعي الذي ينظر إليهم جميعًا على قدم المساواة ، ويتقبلهم جميعًا كما خلقهم اللَّه لا كما يجب أن يكونوا . فقد خلقهم سواسية كأسنان المشط ، ولذلك يحترم كل واحد منهم كنفس بشرية ، وكقيمة إنسانية باعتبارها أثمن شيء في الوجود ، ويهتم

---

(١) البخاري .

(٢) محمد الغزالي : حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة (ص ١٩) .

(٣) البخاري .

(٤) البخاري .

(٥) أبو داود .

كثيرًا باحترام كرامة الإنسان باعتباره مخلوقًا آدميًّا له كرامته وفرديته التي تميزه عن غيره من الناس ، وليس معنى المساواة إلغاء الفروق الفردية بل لكلٍّ قدراته وصفاته الشخصية التي خلقه اللَّه بها لتميزه عن الآخرين .

ولذلك فإن مبدأ المساواة كمبدأ إسلامي مهم يلزم الأخصائي باحترام كل فرد من عملائه ، والاهتمام به ، وإبداء الرغبة الصادقة في مساعدته ، والمحافظة على كرامته وقيمته الإنسانية بغض النظر عن كونه أميرًا أم خفيرًا ، غنيًّا أم فقيرًا ، سليمًا أم مريضًا ، جميلًا أم قبيحًا . فكل ذلك ليس له تأثير على عملية المساعدة ؛ لأن الأخصائي الاجتماعي ليس له إلا هدف واحد وهو تقديم المساعدة المطلوبة للعملاء مهما كلفته من جهد ووقت ، وهو يقدم مساعدته لهم حسب احتياجاتهم لا حسب مراكزهم ومميزاتهم ، وهو لا ينتظر منهم جزاءً ولا شكورًا . واحترام الأخصائي الاجتماعي للعميل بهذه الصورة يشبع عنده عاطفة اعتبار الذات ، ويشعره بأنه إنسان له كرامته وله كيانه وقيمته ، وبذلك يتمكن الأخصائي من امتصاص مشاعر القلة والدونية التي يشعر بها العميل ، حيث إن هذه المشاعر السلبية تعتبر من أهم العقبات التي تعترض جهود الخدمة الاجتماعية الإسلامية .

وتطبيق مبدأ المساواة الذي يفرض احترام العملاء والمحافظة على كرامتهم وقيمتهم الإنسانية ويوجب على الأخصائي الاجتماعي الاهتمام بهم وإبداء الرغبة الصادقة في مساعدتهم ليس كلامًا يقال ولكنه سلوك إسلامي يمارس يبدأ منذ أول لقاء مع العميل ، حيث يقابله الأخصائي الاجتماعي بالبشاشة والترحاب ويدعوه للجلوس في المكان المعد لاستقباله ، وبذلك يشعره بأن هناك من يحترمه ويقدره ، ثم ينصت إليه باهتمام بالغ مبديًا رغبة صادقة في مساعدته ، باذلًا من أجله كل جهد ، مضحيًا في سبيله بكل وقت ، وعندها يشعر العميل بنوع آخر من المعاملة التي لم يألفها من قبل ، ويبدأ في تغيير نظرته لنفسه ويشعر بذاته ويحس بكرامته وقيمته الإنسانية كبقية الناس بعد أن تمتع بحقه في المساواة المطلقة دون قيود أو استثناءات ، وبذلك تتوطد العلاقة بينهما ، ويبدأ التعاون من خلال علاقة محبة أخوية إسلامية ، تؤدي إلى نجاح العلاج الإسلامي .

والأخصائي الاجتماعي الإسلامي الذي اتسع قلبه لحب كل عملائه ، وأحبهم حبًّا صادقًا ، ووجَّه تلك المشاعر الصادقة إليهم مهما كانت عيوبهم أو نوعياتهم ، ما هو إلا بشر كبقية الناس ينفعل مثلهم ويثور ويغضب ، ويمل ويتعب ، ولكنه مختلف عنهم في مطالب مبادئه الإسلامية التي يعد لها ويدرب على ممارستها ، والتي تجعله عندما ينفعل كبقية البشر حليمًا صابرًا متحكمًا في انفعالاته ومشاعره بحيث لا يظهر ضيقه

أو تعبه أو مللـه لمن يقدم لهم المساعدة ، بل يقدر مشاعره السلبية في المواقف الانفعالية المختلفة ؛ كالغضب والخوف والحزن والقلق ، فلا يتأثر بثورتهم ، ولا يضيق بانفعالهم ولا يتحامل عليهم ، بل يقبلهم كعملاء يعانون من مشكلات ، ولا ينظر إليهم كعملاء مشكلين .

وعندما يلتزم الأخصائي بتطبيق مبدأ المساواة عندما يمارس العلاج الإسلامي فسيحترمه العملاء كما يحترمهم ، وسيحبونه كما يحبهم ، وعندئذٍ يثقون فيه ويقعون تحت تأثيره ، ويسهل بعد ذلك تغيرهم وعلاج مشكلاتهم ، وإنماء شخصياتهم ، وينفذون كل المسؤوليات التي يفرضها عليهم العلاج الإسلامي بتعاون مثمر وروح طيبة وأخوة ومحبة صادقة ، متخذين من الأخصائي الاجتماعي الإسلامي القدوة الحسنة والمثال الطيب الصالح للتقليد والتقمص .

المبدأ الرابع : الحرية

مبدأ الحرية من أهم المبادئ الإسلامية التي جاءت بها الشريعة وقررتها في أروع مظاهرها ، فقررت الحرية الدينية ، والحرية السياسية ، والحرية المدنية ، وحرية الرأي والفكر ، وحرية الإرادة ، وكل هذه الحريات ما هي إلا مكونات للحرية الإنسانية التي هي كل لا يتجزأ ، وأي مساس بجانب منها عدوان على شرف الإنسان وتعطيل لمسؤوليته ، وليست الحرية منحة وعطاء يقصد بها الفوضى والتحلل ، وإنما هي فرض مقرر أكدته الشريعة الإسلامية كما جاء في القرآن والسنة ، وكما سمعنا عنها في التراث الكبير لأئمة السلف الصالح الذين ناضلوا ودافعوا عن حرية الإنسان .

فحرية التفكير جاءت بها الشريعة الإسلامية لتحرر العقل من الأوهام وتخلصه من الانقياد الأعمى للعادات والتقاليد ، وتعيد إليه نشاطه وفاعليته حتى يصبح قادرًا على أداء وظيفته ، فوظيفة العقل أن يفكر كما أن وظيفة العين أن تبصر ، والشريعة الإسلامية تدعو إلى نبذ كل شيء لا يقبله العقل ، وتحث على التفكير الدائم في كل شيء ، وتؤمن بكل ما يؤمن به العقل ، والإنسان الذي يعيش بعقل معطل التفكير كمن يسير على قدم واحدة ، أو كمن يعمل بأيد مغلولة ، أو كمن يعيش بأعين مغمضة وكل ذلك ضد طبيعة الأشياء .

وتأكيدًا لأهمية هذا المبدأ الإسلامي المهم نصَّ القرآن الكريم في سور كثيرة على استخدام العقل وتحرير الفكر . قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ

ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤] ، وقوله : ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ ﴾ [سبأ: ٤٦] ، وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ ﴾ [الروم: ٨] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [يونس: ١٠١] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٥ - ٧] ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ [الغاشية : ١٧ - ١٩] .

ومن كل تلك الآيات رأينا كيف أكد القرآن الكريم على ضرورة التفكير كوظيفة للعقل تساعد الإنسان على أن ينظر ويرى ويفكر ويتدبر ؛ لأن العقل هو الميزة الوحيدة التي ميز اللَّه بها الإنسان على غيره من المخلوقات ، فإذا لم يفكر وإذا لم يحسن استغلال عقله ، فسيضل الطريق ، ويصبح تائهًا يتخبط ، ينساق وراء الخرافات والأوهام ، ويقلد غيره في عاداتهم وتقاليدهم دون وعي أو فهم ، بعد أن أصبح له عقل لا يفهم ، وعين لا تبصر ، وأذن لا تسمع ، وقلب لا يعقل ، وبذلك يتساوى بالأنعام بل يصبح أضل سبيلًا منها .

وقصة اهتداء إبراهيم إلى الحق - فيما تلاه علينا كتاب الإسلام - بدأت بالحيرة والشك الذي هو مظهر لرشد العقل وحرية التفكير ، ومن الشك طال تأمله في الكون وإصراره على طلب الهدى والتماس اليقين [١] .

أما الحرية الدينية « فهي أخطر صور الحرية الفكرية وأشدها حساسية فإذا ضمنها الإسلام فقد بلغ الذروة في ضمان حرية التفكير .. وحرية ممارسة الدين وشعائره هي أخطر صور إعلان الرأي ، فإذا ضمنها الإسلام فقد بلغ الذروة في ضمان حرية الرأي والتعبير » [٢] ، إن الشريعة الإسلامية هي أول شريعة أباحت الحرية الدينية وأقرتها ، وعملت على حماية هذه الحرية وصيانتها ، فلكل إنسان أن يعتنق من العقائد ما شاء وليس لأحد أن يحمله على ترك عقيدته أو اعتناق غيرها ، أو يمنعه من إظهار عقيدته .

« والفكرة العامة عن تسامح الإسلام واحترامه لحرية الاعتقاد والتدين ، لا تكفي لبيان

---

(١) عائشة عبد الرحمن : مقال في الإنسان ، دراسة قرآنية ، دار المعارف بمصر (١٩٦٩م) ، (ص٩٣) .
(٢) محمد فتحي عثمان : من أصول الفكر السياسي الإسلامي ، مرجع سابق (ص ٢٣٣) .

الأفق الرحب العالي الذي استشرف بالإنسانية إليه ، فالحق أن الإسلام في إقراره لحرية التدين يلزم أتباعه بهذا الإقرار دينًا وعقيدةً وسلوكًا ، لا لمجرد التسامح أو المجاملة أو المسالمة » (١) .

إن الإيمان الصحيح المقبول يجيء وليد يقظة عقلية واقتناع قلبي ، إنه استبانة الإنسان العاقل للحق ، ثم اعتناقه عن رضا ورغبة ، وقد عرض الإسلام نفسه على الناس في دائرة هذا المعنى المحدد ، غير متجاوز له في قليل ولا كثير ، حتى يوضح مبادئه ، ويمكن الآخرين من الوقوف عليها ، فإذا شاءوا دخلوها راشدين ، وإذا شاءوا تركوها وافرين (٢) ، ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف : ٢٩] .

وأول من مارس هذا المبدأ الإسلامي المهم هو الرسول ﷺ اتقاءً لما قد يدفعه إليه الإيمان من أخذ الناس قسرًا بالدين الحق ، وهو ما يأباه الإسلام نصًّا وروحًا ، إلزامًا للإنسان بحمل الأمانة وتقديرًا ؛ لأن العقيدة لا تكون عقيدة حتى تصدر عن اعتقاد ، والإيمان لا يكون إيمانًا حتى ينبع من القلب والضمير عن رضًى خالص وطمأنينة صادقة . يقول ﷻ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] ، وقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ۖ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١ - ٢٢] ، ويقول ﷻ : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤] .

أما حرية الرأي والقول فقد أباحتها الشريعة الإسلامية وجعلتها حقًّا لكل إنسان ، بل جعلت القول واجبًا على الإنسان في كل ما يمس الأخلاق والصالح العام والنظام العام وفي كل ما تعتبره الشريعة منكرًا ؛ وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ [الحج : ٤١] ، وكذلك قول الرسول ﷺ : « **من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك هو أضعف الإيمان** » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « **أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر** » ، وقوله ﷺ : « **الدين النصيحة** » ، قالوا : لمن يا رسول اللَّه ، قال : « **للَّه ورسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم** » .

---

(١) عائشة عبد الرحمن : مقال في الإنسان . دراسة قرآنية ، مرجع سابق ، (ص ٧٧) .

(٢) محمد الغزالي ، حقوق الإنسان ، مرجع سابق ، (ص ٩٠) .

وإذا كان لكل إنسان أن يقول ما يعتقد أنه الحق ويدافع بلسانه وقلمه عما يكتب أو يقال خارجًا عن حدود الآداب العامة والأخلاق الفاضلة أو مخالفًا لنصوص الشريعة [١] .

ومن حرية الرأي والقول ما أقرته الشريعة الإسلامية من حق الجدال في الأمور الدينية وما يتضل بها من مسائل عملية ، حيث إن الجدال ظاهرة إنسانية تميز الإنسان عن غيره من الكائنات ، وحيث إن الإسلام هو دين الفطرة فقد قدر طبيعة الإنسان التي تختلف عن طبيعة الملائكة وبقية الكائنات ، فلم ينكر عليه الجدال وسمح له بأن يقول ما يشاء دون أن يكون شتامًا ولا عيابًا ولا قاذفًا ولا كاذبًا ، وأن يدعو لرأيه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادل بالتي هي أحسن وبهذا أمر نبي الإسلام : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

أما الحرية المدنية : « فيقصد بها كل التصرفات النابعة من شعور الإنسان بذاته وضرورة اعتراف الجماعة بشخصيته وأهليته المطلقة للتصرف وفق ما يريد » [٢] .

الشريعة الإسلامية أباحت هذه الحقوق بحيث يصبح الإنسان حرًا في حياته يعيش حيث يشاء ويسكن حيث يريد ، ويتنقل من مكان لآخر متى يشاء وأين يشاء ، حرًا في معاملاته وفي اختياره للمهنة التي يحبها ، يجمع المال ما يستطيع ، ويتصرف فيه كما يهوى ما دام كل ذلك في صالحه وصالح المجتمع وليس فيه أذًى له ولا لغيره ، وليس من حق أحد أن يقيد تلك الحرية أو يسلبها إلا إذا كان ظالمًا لا يعرف حقوق الآخرين ولا يعرف أصول دينه .

واللَّه ﷻ خلق الإنسان كامل المسؤولية ، وشرع له التكاليف الدينية ورتب عليها المثوبة والعقوبة ، على أساس إرادته الحرة وامتلاكه المطلق للاتجاه ذات اليمين أو ذات اليسار .

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩ - ٤١] .

---

(١) عبد القادر عودة : التشريع الجنائي الإسلامي ، مرجع سابق (ص ٣٣) .

(٢) محمد الغزالي : حقوق الإنسان ، مرجع سابق (ص ١٠٦) .

وهكذا نرى أن الشريعة الإسلامية حينما أباحت الحرية المدنية فإنها كانت تهدف إلى بناء الشخصيات الإسلامية التي تشعر بذاتها وقيمتها الإنسانية بعد أن تأخذ مكانتها بين الجماعات الإسلامية بحيث يشعر كل إنسان منهم بانتمائه إليها فيخلص لها ، ويتفانى في سبيل إنمائها وبنائها حتى تصبح خير أمة أخرجت للناس .

وأخيرًا : نصل إلى حرية الإرادة وهي ليست في الواقع إلا عنصرًا جوهريًّا من كلٍّ لا يتجزأ هو الحرية الكاملة للإنسان بمقتضى اضطلاعه بحمل الأمانة . ونحدد مفهوم الإرادة فنقول : إنها لا تعني مجرد الرغبة والميل ولا هي تقف عن التفكير والاتجاه إلى عمل ما ، إنما تكون الإرادة حين تنتقل النية إلى عمل ، ويستقر العزم عليه في تصميم مهما تكن العوائق والموانع . وإذا كانت الرغبة تمهيدًا للإرادة ، وكان العزم من لوازمها ، فمن الضروري أن نتدبر استعمال القرآن لكل من الرغبة والعزم ، لعله يضيء لنا سبيلنا إلى تدبر موقفه من الإرادة .

ويشهد التتبع الدقيق ، بأن الرغبة لم تأتِ إطلاقًا في القرآن الكريم مسندة أو مضافة إليه تعالى ، وإنما جاءت مادة « رغب » في كتابه المحكم ثماني مرات ، كلها بلا استثناء للمخلوقين لا للخالق .

وكذلك الأمر في العزم ، لم يأتِ قط مضافًا أو مسندًا إلى اللَّه ، ولا وصف سبحانه بأنه ذو عزمٍ ، وإنما العزم في كتاب اللَّه لعباده بصيغة الفعل أو بصيغة المصدر .

والعزم في القرآن يأتي بمعنى التصميم والنفاذ : ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ ، ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ، وهذا الاستقراء جدير بأن يلفتنا إلى ملحظ دقيق ، هو الفرق الجوهري بين مفهوم الإرادة حين تكون من الخالق حكمًا وقضاءً ، ومفهوم الإرادة حين تكون من المخلوقين رغبةً واختيارًا وإرادة المخلوقين إرادة كسبية ، مصحوبة بعزم مسبق برغبة وتفكير ، وليست كذلك عزمًا . وإرادة اللَّه حيث لا يجوز عليه تعالى أي عمل أو صفة كسبية ، على ما هو مقرر في علم التوحيد وإنما تفهم إرادة اللَّه في القرآن كله على أنها حكم نافذ وقضاء مبرم ، وليست كإرادتنا عزمًا على أمر أو سعيًا وراء مراد نصمم على إنفاذه [١] .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] .

---

(١) عائشة عبد الرحمن : مقال في الإنسان ، مرجع سابق ، (ص ١٠٨ - ١١٠) .

والخدمة الاجتماعية عندما تمارس العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية فإنها تعتمد اعتمادًا كبيرًا على تطبيق المبادئ الإسلامية وبخاصة مبدأ الحرية سواء كانت حرية دينية أم حرية مدنية أم حرية التفكير أم حرية الرأي والقول أم حرية الإرادة ، فالحرية كلٌّ لا تتجزأ ، وحقٌّ لكل مسلم يجب أن يتمتع به ويمارسه ، وإذا صادفه بعض العقبات أو بعض المشكلات التي تعوق ممارسته لهذا الحق فإن الخدمة الاجتماعية تقف بجانبه وتساعده حتى يحصل على حقوقه كاملة ، ويستفيد منها الاستفادة المرجوة ما دامت الخدمة الاجتماعية تسعى لإنماء الشخصية وبنائها عن طريق العلاج الإسلامي .

إن الأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية ويطبق مبادئه الإسلامية عندما يطبق مبدأ الحرية فإنه يساعد العميل على ممارسة حقه في حرية اتخاذ القرارات المناسبة لمصلحته ومصلحة المجتمع ويشاركه في تحمل الجزء الأعظم من مسؤولية توجيه حياته ؛ لأن العميل الذي يشترك في اتخاذ القرارات التي تناسبه سوف يتحملها وينشط لتحقيقها ، ويجند كل طاقاته وقدراته لنجاح أي مسؤولية قررها بنفسه ، وتحملها بدافع من نشاطه الذاتي ورغبته الشخصية ، وبذلك تظهر الرغبة في طلب العلاج الإسلامي وتقوى العزيمة ، ويتم التعاون المشترك بين الأخصائي الاجتماعي الإسلامي والعميل بعد أن نشطت إرادته وتحررت .

والعلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية لن ينجح ويؤتى ثماره المطلوبة إلا بتعاون العميل بجدية وإيجابية دون أي ضغط أو إكراه ؛ لأنه مطالب باستغلال نشاطه الذاتي في توجيه أمور حياته ومطالب بالاشتراك في اتخاذ القرارات المناسبة التي يتقرر بها مصيره .

والأخصائي الاجتماعي عندما يطبق مبدأ الحرية ويساعد العملاء على ممارسته ، فإنه يعرف جيدًا أن الشريعة الإسلامية أباحت هذا الحق للإنسان العاقل الناضج ذي الأهلية الذي يستطيع استغلال تلك الحرية لما فيه صالحه وصالح المجتمع ، وحتى العميل الناضج ذو الأهلية فإنه لا يمنح حقه في ممارسة الحرية بصورة مطلقة بل تقيد تلك الحرية حتى تصبح حرية اجتماعية وليست حرية مطلقة وهذه القيود التي تقيد بها حرية العملاء تتمثل أولًا في قيود المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه ، وتتمثل في : أخلاقياته ، وقوانينه ، وعاداته التي أقرتها الشريعة الإسلامية .

ولكي يطبق الأخصائي الاجتماعي الإسلامي مبدأ الحرية بما يساعد العميل على

الاستفادة من ممارسته حرية تقرير مصيره بالصورة التي أباحتها الشريعة الإسلامية فلا بد أن يكون في حالة نفسية حسنة تسمح له بالتفكير السليم فيما يتخذه من قرارات وما يتحمله من مسؤوليات حتى ينجح العلاج الإسلامي في تحقيق أهدافه ، والأخصائي الاجتماعي الإسلامي يعرف جيدًا أن العميل عندما يلجأ إليه طالبًا العون والمساعدة ما لجأ إليه إلا بعد أن أصبح عاجزًا عن اتخاذ القرارات السليمة وغير قادر على تحمل المسؤولية ؛ لأنه يقع تحت الضغوط الداخلية المتمثلة فيما يعانيه من مخاوف وقلق وتوترات نفسية ناتجة عن تلك الضغوط وكانت السبب في تعطيل تفكيره وتقييد إرادته وشل عزيمته بحيث لم يعد يعرف ما يرغبه ، فكيف يمارس حقه في الحرية وهو في مثل هذه الحالة السيئة .

المبدأ الخامس : الإخاء

إن من يدرس الدين الإسلامي يتأكد تمامًا أن قوة الإسلام وعظمته جاءت نتيجة حتمية لتطبيق مبادئه الإنسانية ، تلك المبادئ التي نادى بها الإسلام منذ أكثر من (١٤٠٠) سنة ، وسبق المدنية الحديثة والأمم المتحضرة في النداء بها ، وقد رأينا في الصفحات السابقة كيف نادى الإسلام بمبدأ المساواة ومبدأ الحرية ، وكيف مارس الرسول ﷺ تلك المبادئ وطبّقها بنفسه ، وكيف تبعه أصحابه واستمروا في ممارستها ، وسنرى الآن في الصفحات التالية مبدأ آخر من أهم المبادئ الإسلامية وهو مبدأ الإخاء الذي أكدته الشريعة الإسلامية حتى صارت روح الإسلام روح مساواة وحرية وإخاء .

إن الإسلام دين الإخاء كما كان دين الحرية والمساواة فالمسلم أخو المسلم ، يفرح لفرحه ، ويحزن لحزنه ، ويشاركه شعوره ، ويحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويقول رسول اللَّه ﷺ : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** » ، وبذلك يحث الرسول ﷺ أتباعه وأصحابه ليضع كل منهم نفسه موضع غيره دائمًا ، ويعامله المعاملة الحسنة التي يحب أن يعامل بها ، وكان هو ﷺ أول من فعل ذلك وأول من طبّق هذا المبدأ ، بل كان يؤكد قيمته حتى آخر حياته كما قال في خطبة الوداع : « **أيها الناس ، إنما المؤمنون أخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه ، فلا ترجعُنَّ بعدي كفارًا ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي – كتاب اللَّه – أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند اللَّه أتقاكم ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى** » .

وكما رأينا قبل ذلك كيف مارس الرسول ﷺ بنفسه المبادئ الأخرى ، وكيف ترجمها من قول إلى عمل ، سنرى الآن كيف مارس مبدأ الإخاء وذلك « عندما آخى بين المهاجرين والأنصار وحالف بينهم في دار أنس بن مالك ، كما آخى بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف ، حتى قال سعد لعبد الرحمن : خذ شطر مالي واختر إحدى زوجاتي حتى أطلقها وتنكحها » ، فقال عبد الرحمن : بارك اللَّه لك في مالك وأهلك دلوني على السوق . وكما آخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء وهذا كله في الصحيح .. [١] « كما كان الرسول ﷺ هو وعلي بن أبي طالب أخوين ، وكان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجي أخوين ، وتآخى كذلك كل واحد من المهاجرين – الذين كثر عددهم بيثرب ، بعد أن تلاحق إليها سائر من كان منهم بمكة في أعقاب هجرة الرسول إياها – مع واحد من الأنصار إخاء جعل له الرسول حكم إخاء الدم والنسب . وبهذه المؤاخاة ازدادت وحدة المسلمين توكيدًا » [٢] .

وهكذا يعلن الإسلام الأخوة مبدأ ، وينادي بها فريضة ترتقي إلى درجة العقيدة ، وفي ذلك يقول اللَّه تعالى في كتابه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، ويقول ﷻ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ ، ويعلن الرسول ﷺ الأخوة بين البشر مع أركان العقيدة الإسلامية الصحيحة فكان يقول في دُبر صلاته : « **اللَّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا أشهد أنك اللَّه وحدك لا شريك لك ، اللَّهم ربنا ورب كل شيء أنا أشهد أن محمدًا عبدك ورسولك ، اللَّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة** » [٣] ، وقال ﷺ : « **المسلم أخو المسلم لا يسلمه** [٤] **ولا يظلمه ، والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** » .

إن مبدأ الإخاء الذي مارسه الرسول الكريم ﷺ لم يؤاخ بين أحرار المسلمين فقط ، بل إنه عليه الصلاة والسلام شدَّ عرى الأخوة بين الموالي والعبيد أيضًا ، فقال ﷺ : « **إخوانكم خولكم** [٥] **جعلهم اللَّه تحت أيديكم** » وشدد كل التشديد على كل من

---

(١) محمود علي قراعة : الأخلاق في الإسلام ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، (٦٣) ، (ص ١٣٩) .

(٢) محمد حسين هيكل : حياة محمد ﷺ ، مرجع سابق (ص ٢٢٣) .

(٣) رواه أحمد من حديث زيد بن أرقم .

(٤) يسلمه : يتركه للحوادث من غير مساعدة .

(٥) خولكم : حشمكم وخدمكم .

يحاول تحقير أخيه المسلم ، فقال : « **كل المسلم على المسلم حرام ؛ ماله وعرضه ودمه ، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم** » ، وقال ﷺ : « **المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان اللَّه في حاجته ، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرَّج اللَّه عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلمًا ستره اللَّه يوم القيامة** » . قال اللَّه تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ [الحجرات : ١٢] (١) . وفي ذلك تأكيد من اللَّه ﷻ للأخوة الإسلامية الصادقة التي تمنع الغيبة بمعناها الذي حدده الرسول ﷺ بأنها : « **ذكرك أخاك بما يكره** » قيل : وإن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته** » (٢) ، وزاد في التشديد والوعيد في هذا الأمر ، حتى قال عليه الصلاة والسلام : « **إن الرجل ليزني فيتوب اللَّه عليه . وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه** » .

وفي سبيل تقوية الأخوة الإسلامية وتدعيمها « حرم الإسلام كل التحريم إثارة الحقد والبغضاء والصراع بين الناس ، و أوجب التدخل بكل طاقة ممكنة لوقف الخصومة وطرد شيطان العداوة وزرع الحب بدل البغض ، وإحلال الوئام بدل الخصام والسلام محل النزاع » (٣) ، يقول اللَّه في كتابه الكريم : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ١] ، ويقول ﷻ : ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٤] ، ويقول : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

ولذلك عدلت الخدمة الاجتماعية مسيرتها وعدلت أساليبها الفنية وعرفت مكانتها على الطريق السليم طريق الشريعة الإسلامية ؛ لأنه الطريق الوحيد المناسب للبناء والإنماء ، وفي سبيل هذا التعديل جعلت من المبادئ الإسلامية مبادئًا لها ، ومن العلاج الإسلامي أسلوبًا فنيًّا لممارستها ، بحيث تصبح الخدمة الاجتماعية الإسلامية قادرة على تحمل مسؤولياتها في بناء المجتمعات وإنماء الشخصيات ، وهكذا تنجح في ممارسة أدوارها الإسلامية في بناء وإنماء المجتمع الإسلامي .

---

(١) محمد المثل الكامل : نفس المرجع ، (ص ٣١٥) .

(٢) بهته : نسبت إليه ما لم يفعل .

(٣) يوسف القرضاوي : الحل الإسلامي فريضة وضرورة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، (١٩٧٧م) ، (ص ١٥٦) .

وكما مارس الأخصائي الاجتماعي المبادئ الإسلامية السابق ذكرها يمارس مبدأ الإخاء ويعتمد عليه في بناء علاقة متينة قوية مع عملائه تساعده وتمكنه من التأثير فيهم بحيث يصبح قادرًا على تغييرهم ، وخصوصًا وأن العملاء الذين يلجأون إليه طالبين مساعدته ، أو الذين يتقدم هو لمساعدتهم حتى لو لم يطلبوا منه المساعدة مروا بخبرات سيئة مع الناس الذين تعاملوا معهم ، فلم يتذوقوا طعم الأخوة الإسلامية ولم يلمسوا قيمتها الإنسانية ؛ ولذلك أصبحوا مشحونين بشحنة كبيرة من المشاعر السلبية التي جعلتهم ينفرون من الناس وينظرون إليهم كأعداء يكرهونهم لا كإخوان يحبونهم .

ولذلك يتقدم الأخصائي لمساعدتهم كإنسان يحبهم ، وأخ لهم في الإسلام يتفانى في سبيل مساعدتهم ؛ مضحيًا بوقته وجهده لإسعادهم ، فيعاملهم المعاملة الطيبة التي لم يتعودوا عليها مع الآخرين ويحترم كرامتهم التي طغى عليها الآخرون ، ويقدس قيمتهم الإنسانية التي تحيي فيهم الشعور بالذات ، وتعيد إليهم الثقة في الناس ، بعد أن وجدوا بجانبهم أخًا يشاركهم أفراحهم ، وأتراحهم ، ولا يبغي من وراء ذلك منفعة شخصية ولا ينتظر منهم جزاءً أو شكورًا ؛ لأنه يطبق المبادئ الإسلامية التي تجعله مثالًا طيبًا وقدوة حسنة ، كما كان الرسول ﷺ مع أتباعه ممارسًا لتلك المبادئ ومطبقًا لها ، فقرَّب بين القلوب المتنافرة ، ووحَّد بين النفوس المتحاربة ، وجعل منهم قوة متماسكة معاونة تتكاتف للبناء وتتعاون للإنماء .

وعندما يمارس الأخصائي الاجتماعي مبدأ الإخاء ، ويثبت لعملائه قيمة الأخوة الإسلامية بالقول والفعل سيحترمه العملاء ويثقون فيه ويقعون تحت تأثيره ، وعندئذٍ تكون الفرصة المناسبة للتأثير عليهم وتغييرهم ، فيجعلهم قادرين على تعميم حبهم له وثقتهم فيه إلى بقية الناس الذين سيتعاملون معهم وعندها سينظرون إليهم نظرة جديدة ، ملؤها الحب والمودة الإخاء ، بحيث يصبح الجميع أخوة متحابين وأفرادًا متعاونين ؛ فتقوى شبكة العلاقات في نسيج المجتمع ، ويصبح كل فرد منهم متحمسًا لتحمل مسؤولياته وقادرًا على أداء أدواره بنجاح وتوافق .

إن الأخوة الإسلامية كمبدأ إسلامي عظيم يستغله الأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي ليشبع حاجة عملائه إلى التقدير من خلال تشجيعهم وتقديرهم أثناء تفاعلهم معه ، وبعد مساعدتهم على النجاح في تحمل المسؤوليات التي يسندها إليهم مراعيًا تدرجها ومناسبتها لقدراتهم وإمكانياتهم ، كما يستغل هذا المبدأ ليشبع حاجتهم إلى الانتماء عن طريق انتمائهم للجماعات التي يكونها خصيصًا لذلك والتي

يصمم لها الأنشطة المختلفة التي تساعده على تحقيق أهدافه ، كما يستغل الأخصائي مبدأ الإخاء ليشبع من خلاله حاجة العملاء إلى الحب ؛ فكل منهم في حاجة إلى أن يحِب ، ويحَب ، وذلك عن طريق حبه لهم وحبهم له ، بالإضافة إلى تبادل الحب بين أعضاء الجماعات المختلفة التي يكونها الأخصائي لإشباع تلك الحاجات .

المبدأ السادس : الحب

الحب هو الذي يبني المجتمعات ، ويزرع الثقة ، ويدفع للعطاء ، ويجعل الناس يتعاطفون مع الآخرين ويحبونهم بعد أن يجعلهم يحسون بقيمتهم وقيمة الناس من حولهم ، وإذا تحاب الناس وتآلفوا تكونت بينهم علاقة المحبة الأخوية ، علاقة الاحترام والحب والثقة ، تلك العلاقة التي يعتمد عليها العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية في تغيير الناس والتأثير فيهم بهدف تعديل سلوكهم وإنماء شخصياتهم حتى يصبحوا أقوياء متضامنين وأخوة متحابين .

لذلك احتفى الإسلام بروابط الصداقة النقية ووشائج الحب الصادق ، وطالب بالحرص عليها للَّه وفي اللَّه ، وجعله إحدى خصال ثلاث يدرك بها المسلم حلاوة الإيمان ولذلك قال ﷺ : « **ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا للَّه ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار** » (١) ، وهذا ثواب اللَّه وأجره في الآخرة للمتحابين (٢) .

يقول اللَّه تعالى في الحديث القدسي : « **المتحابون بجلالي في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي** » .

وقال ﷺ : « **إن من عباد اللَّه ناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من اللَّه تعالى** » ، قالوا : يا رسول اللَّه فخبِّرنا من هم ؟ قال : « **هم قوم تحابوا بروح اللَّه على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، واللَّه إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس** ، وقرأ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣) .

« ولذا يرى ابن تيمية أن من شروط الإيمان التحاب والتواد ، وأن تحب لأخيك ما

---

(١) البخاري .

(٢) كمال محمد عيسى : العقيدة الإسلامية ، سفينة النجاة ، دار الشروق ، بيروت (٨٠) ، (ص ٤٩٨) .

(٣) أبو داود .

تحب لنفسك ، والمحبة والمودة التي بين المؤمنين إنما تكون تابعة لحبهم للَّه تعالى ؛ فإن أوثق عرى الإيمان الحب في اللَّه والبغض في اللَّه . فالحب للَّه من كمال التوحيد ، والحب مع اللَّه شرك ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ومن أحب اللَّه أحبه اللَّه ، ومن ودَّ اللَّه ودَّه اللَّه فعلم أن اللَّه أحبهم وودَّهم بعد التوبة كما أحبوه وودوه . بل يدل كل من الكتاب والسنة على أن اللَّه يحب التوابين ويفرح بتوبة التائبين » [1] .

إن المجتمع المتحاب بروح اللَّه الملتقي على شعائر الإسلام ، يعتمد في بنائه على المحبة الصادقة والمودة المخلصة ، فهي أقوى الدعامات التي يرتفع عليها بنيانه ، وقد رأينا كيف كانت أواصر المحبة في اللَّه هي التي جمعت أبناء الإسلام أول مرة ، وأقامت دولته ، ورفعت رايته ، وعليها اعتمد رسول اللَّه في تأسيس أمة قوية كانت خير أمة أخرجت للناس .

إن محبة المسلم الصادقة ومودته المخلصة لإخوانه في الإسلام ما هي إلا دليل على محبة اللَّه ومودته ؛ لأن اللَّه إذا أحب عبدًا من عباده جعله محبوبًا من كل الناس ومحبًّا لهم .

« ومحبة اللَّه هي الغاية القصوى وهي من الدرجات العلى وما عداها من الشوق والأنس والرضا تابع للمحبة ... » قال اللَّه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وفي الحديث الشريف : « **لا يؤمن أحدكم حتى يكون اللَّه ورسوله أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين** » .

وهذا هو الحب الذي أباحته الشريعة الإسلامية وأقرته كمبدأ مهم من المبادئ الإسلامية التي يعتمد عليها العلاج الإسلامي لمواجهة المشكلات الاجتماعية ، حيث إن تلك المبادئ الإسلامية – وعلى رأسها مبدأ الحب – هدفها البناء والنماء للأفراد والمجتمعات بما يحقق سعادة الدنيا والآخرة .

إن الشريعة الإسلامية عندما أقرَّت الحب كمبدأ إسلامي مهم إنما كانت تهدف إلى تدعيم العلاقات الإنسانية وتقوية أواصر المحبة والمودة بين كل الناس لينهض المجتمع الإسلامي ويرتفع بناؤه معتمدًا في ذلك على أسس متينة ودعامات قوية هي تلك المبادئ الإنسانية التي تهتم بالإنسان وقيمته ، والتي جعلت هدفها الرئيسي إنماءه وبناء شخصيته .

وحيث إن الخدمة الاجتماعية تسعى لتحقيق هذا الهدف فقد آمنت بتلك المبادئ

---

(١) فتاوى ابن تيمية ، الجزء الثاني (٢/٢٩٠) .

الإسلامية واعترفت بقيمتها وأهميتها ، بل وجعلت تلك المبادئ مبادئًا لها وصارت تمارسها وتطبقها ، وبذلك تنجح في تحقيق أهدافها ، ولكي تنجح في تحقيق أهدافها فقد جعلت أسلوبها في العلاج أسلوبًا استمدته من كتاب اللَّه الكريم ومن سنة رسوله ﷺ ، واتجهت بكل إمكانياتها إلى ممارسة العلاج الإسلامي لحل المشكلات الاجتماعية التي تعوق إنماء وبناء الشخصية .

والخدمة الاجتماعية الإسلامية قد جنَّدت كل إمكانياتها لتصبح قادرة ومؤثرة ، وأصبح لها باع طويل في هذا التغيير حيث إن هدفها الأول هو تغيير الإنسان حتى يمكن بناؤه وإنماؤه ، ولن يتغير الإنسان إلا إذا كانت هناك وسيلة قوية فعالة مؤثرة تساعد على هذا التغيير ، ووسيلة الخدمة الاجتماعية الإسلامية هي الحب .

وعندما مارس الرسول ﷺ مبدأ الحب لم يميز أحدًا عن الآخر بل تساووا جميعًا أمامه ، فقيرهم كغنيهم ، ومريضهم كصحيحهم ، ورئيسهم كمرؤوسهم لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى ، كما آخى بينهم جميعًا حتى صارت رابطة الأخوة في الإسلام أقوى من أخوة الدم ، وجعلهم جميعًا أحرار كرماء أعزاء ، وبذلك انتشر الحب وملأ القلوب ، والتف الجميع حول الرسول المحبوب ، وتغير الناس من الجاهلية إلى الإسلام ، وخرجوا من الظلمات إلى النور ، وظهرت خير أمة أخرجت للناس ، لواؤهم الإسلام ، وشعارهم الحب والسلام ، وقدوتهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد كان يحب الجميع حبًّا خالصًا للَّه وفي اللَّه ، وكانوا جميعًا يحبونه حبًّا خالصًا للَّه وفي اللَّه حتى صارت رابطة الإيمان أقوى من رابطة النسب .

والخدمة الاجتماعية الإسلامية التي بدأت تمارس العلاج الإسلامي وتعتمد على تلك المبادئ الإسلامية في ممارستها أخذت على عاتقها نشر هذا الحب والدعوة إليه اقتداءً بالرسول ﷺ فقد كان الأخصائي الاجتماعي الأول الذي طبَّق هذه المبادئ واعتمد في علاج المشكلات الاجتماعية جميعًا على مبدأ الحب ، حيث كان يعتبر هذا المبدأ دعامة قوية من دعامات العلاج الإسلامي .

والأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية ويطبق مبادئه الإسلامية يقتدي برسول اللَّه ﷺ فيظهر مشاعر الحب الصادق والمودة الخالصة لعملائه الذين يحضرون إليه طالبين عونه ومساعدته ، فهو يقابلهم بالبشاشة والترحاب محترمًا لهم ، محافظًا على كرامتهم ، مبديًا الرغبة الصادقة في مساعدتهم

وعندئذٍ يمتص مشاعرهم السلبية التي نتجت مما عانوه من ضغوط داخلية وخارجية وعندها يشعرون بالراحة والطمأنينة ويبدأون في مبادلته مشاعر الحب والود وتنمو الثقة وتبدأ علاقة المحبة الأخوية في الظهور ، ويحرص الأخصائي الاجتماعي على تقويتها وتدعيمها .

إن علاقة المحبة الأخوية التي نادى بها الإسلام ، هي التي يبنيها الأخصائي الاجتماعي على المحبة والثقة والاحترام المتبادل ؛ لأنها ستكون وسيلته للتغيير ، وهي التي ستمده بالقدرة على التأثير .

وعندما تربط علاقة المحبة والمودة بين الأخصائي الاجتماعي والعميل سيثق فيه ويصبح واقعًا تحت تأثيره ، يطيعه إن أمر ويأخذ بمشورته ويقتنع بكلامه وعندئذٍ يصبح قابلًا للتغيير وعندها يبدأ الأخصائي الاجتماعي في تغييره ، إن كان سلبيًّا يعيد إليه إيجابيته ، وإن كان حزينًا يعيد إليه ابتسامته ، وإن كان يائسًا يعيد إليه الأمل ، وإن كان خائفًا يعيد إليه الأمن ، وإن كان قلقًا متوترًا يعيد إليه الاستقرار والراحة النفسية .

المبدأ السابع : الإخلاص

« الإخلاص روح الدين ولباب العبادة وأساس أي داعٍ إلى اللَّه ، فإذا غاض هذا المعنى أو تضاءل لم يبق هنالك ما يستحق الاحترام لا في الدنيا ولا في الآخرة ... في أعمال الحياة المعتادة قد يكون الإخلاص شرطًا لإتقانها وتجويدها وضمان ثمرتها . ولكن في ميدان الدين لا يرتفع عمل أبدًا ما لم تصحبه نية صالحة ، وما لم يقترن بإرادة وجه اللَّه وحده ، والإخلاص فريضة على كل عابد ، وهو في محرابه الخاص ، يتعامل مع ربه فحسب » [١] .

« وقال سهل رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى : الإخلاص هو أن يكون سكون العبد وحركاته للَّه تعالى ، وقال إبراهيم بن أدهم : الإخلاص هو صدق النية مع اللَّه تعالى ، وقال آخر : الإخلاص في العمل هو ألا يريد صاحبه عليه عوضًا في الدارين » [٢] .

ويقول الإمام الغزالي في حقيقة الإخلاص : « اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفي عن شوبه وتخلص عنه سمي خالصًا ، ويسمى الفعل الصفي المخلص إخلاصًا [٣] ، قال اللَّه تعالى : ﴿ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ [النحل : ٦٦] .

(١) مع اللَّه ، مرجع سبق ذكره (ص ١١٣) (٢) طب القلوب ، مرجع سابق ذكره (ص ١٨١) .
(٣) مختصر إحياء علوم الدين ، مرجع سبق ذكره ، (ص ٢٦٩) .

من هذه التعريفات يتضح لنا أن مبدأ الإخلاص يقصد به الإخلاص للَّه في القول والإخلاص للَّه في النية والإخلاص للَّه في العمل .

والإخلاص في القول والعمل هو من أسس الإيمان ، ومن مقتضيات الإسلام ، لا يقبل اللَّه العمل إلا به ، جاء الأمر به جزمًا وتأكيدًا في كتاب اللَّه ﷻ ، وعلى لسان نبيه عليه الصلاة والسلام (١) .

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] .

وقال عليه الصلاة والسلام – فيما رواه الشيخان – « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى** » .

وقال صلوات اللَّه وسلامه عليه – وفيما رواه أبو داود والنسائي : « **إن اللَّه ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا ، وابتغُى به وجهُه** » .

وبذلك تؤكد الشريعة الإسلامية على كل مسلم أن يحرر النية ويقصد بها وجه اللَّه في كل قول وفي كل عمل يقوم به ؛ ليكون عند اللَّه من المقبولين وعند الناس من المحبوبين والمؤثرين ... وبذلك يصبح مبدأ الإخلاص من الدعامات الأساسية للعلاج الإسلامي الذي يهدف إلى اكتساب حب الناس والتأثير فيهم ليسهل تغييرهم وتعديل سلوكهم .

وممارسة العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية عندما تعتمد في ممارستها على مبدأ الإخلاص فإنها تهدف إلى الإخلاص في القول والعمل بنية خالصة لوجه اللَّه ، حيث إن الممارس الإسلامي لا ينتظر أجرًا على عمله ولا يبغي جزاءً أو شكورًا وإنما يجد ويتعب ويضحي بجهده ووقته ابتغاء مرضاة اللَّه وقاصدًا وجهه ﷻ .

وروي عن الإمام أحمد أنه قال : أصول الإسلام ثلاثة أحاديث : حديث : « **إنما الأعمال بالنيات** » ، وحديث عائشة : « **من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد** » ، وحديث النعمان : « **إن الحلال بين والحرام بين** » ، فإن الدين كله يرجع إلى فعل المأمورات وترك المحظورات والتوقف عن الشبهات وهذا كله تضمنه حديث النعمان ، وإنما يتم ذلك بأمرين ، أحدهما أن يكون العمل في ظاهره على موافقة السنة وهو الذي تضمنه حديث عائشة ، والثاني أن يكون العمل في باطنه يقصد به وجه اللَّه وهو الذي تضمنه حديث

---

(١) عبد الله علوان : تربية الأولاد في الإسلام ، دار السلام للطباعة والنشر بالقاهرة (١٩٧٩م) (٢/٧٨١) .

عمر : « **إنما الأعمال بالنيات** » ، فحديث عمر ميزان الأعمال الباطنة ، وحديث عائشة ميزان الأعمال الظاهرة ، وقال الفضيل في قول اللَّه : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ قال : أخلصه وأصوبه ، وقال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، حتى يكون خالصًا وصوابًا ، قال : والخالص إذا كان للَّه ﷻ ، والصواب إذا كان على السنة ، وقد دل على كلام الفضيل قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ونخلص إلى أن العمل الصالح ما كان خالصًا للَّه متابعًا للرسول ﷺ [١] .

والطريقة التي يتحصل بها العبد على الإخلاص في عمله ، هي كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ، فعندها يتيسر الإخلاص ؛ لأنه لا يرى أمامه إلا اللَّه تعالى وما سواه فهو باطل ، فيخلص وتخلص أعماله ، فكم من أعمال يتعب فيها العبد ويظن أنها خالصة لوجه اللَّه ويكون فيها مغرورًا ؛ لأنه لا يرى طريق الآفة فيها .

فطريق الإخلاص شاق وصعب يحتاج إلى تنقية القلب ، وتطهير النفس ، ونقاء الضمير ، بحيث يعمل الإنسان لدنياه كأنه يعيش أبدًا ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا ، والقليل من يتنبَّه لذلك وهو من وفَّقه اللَّه تعالى ، ولذلك فإن تطبيق هذا المبدأ الإسلامي المهم يحتاج إلى مجاهدة النفس وترويضها بحيث يصبح الإنسان شديد النقد والمراقبة لها ، وبذلك يصير من عباد اللَّه المخلصين .

وهكذا نرى أن ممارسة مبدأ الإخلاص يؤدي إلى فضائل كثيرة منها : حسن العقيدة ، وحسن العمل ، وحسن النية ، وحسن الجزاء .

ولذلك اتخذت الخدمة الاجتماعية من العلاج الإسلامي منهجًا لها ومن المبادئ الإسلامية مبادئًا لها ، حيث إنها مبادئ إنسانية أوجدتها الشريعة الإسلامية لرفاهية المجتمعات وسعادة الإنسان ، إن المجتمعات الإسلامية اليوم أصبحت في مسيس الحاجة لتلك المبادئ بعد أن اضطربت المجتمعات وكثرت فيها المشكلات التي هددت سعادة الإنسان ، وأضعفت جوانب شخصيته ، سواء كانت نفسية أو عقلية أو جسمية أو اجتماعية ، حتى صار عاجزًا عن التوافق في المجتمع بعد أن عجز عن أداء أدواره الاجتماعية .

ولهذا السبب ظهرت الخدمة الاجتماعية الإسلامية كنظام اجتماعي مستحدث

---

(١) الحديقة اليانعة والبروق اللامعة ، مرجع سابق ذكره ، (ص ٣١٩) .

يساعد النظم الأخرى ويساندها ، وبتساند تلك الأنظمة وظيفيًا وتكاملها بنائيًا يرتفع صرح المجتمع الإسلامي ويشتد بنيانه بعد أن انصهرت لبناته في بوتقة العلاج الإسلامي ، وتم إعادة تشكيلها عن طريق ممارسة المبادئ الإسلامية التي تنتج أمتن اللبنات وأقوى الشخصيات .

وفي سبيل هذا الهدف العظيم يمارس الأخصائي الاجتماعي الإسلامي مبدأ الإخلاص ، ويبدأ بتطبيقه على نفسه أولًا قبل أن يطبقه على الآخرين ؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وعندما يبدأ بتطبيقه فإنه يروض نفسه على المجاهدة ، ويظهر قلبه بالإيمان ويخلص للَّه وحده في القول والنية والعمل وبذلك يكون مخلصًا للَّه ، يعبده حق العبادة ، فيلتزم بأوامره ويبتعد عن نواهيه ، فتسمو روحه وتصفو نفسه ويتسع قلبه لحب الناس ، فيحبهم ويحبونه ، ويحترمهم ويحترمونه ، ويثق بهم ويثقون به وتتكون العلاقة الأخوية الجياشة بالحب الصادق ، حب الإنسان المسلم لأخيه الإنسان، ذلك الحب النقي المخلص الذي يبغي من ورائه وجه اللَّه وحده ، وعندئذٍ يهب لمساعدته عندما يطلب المساعدة ويسارع لنجدته عندما تواجهه المشكلات ، واللَّه في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ، وهذا يكون الإخلاص للَّه والإخلاص لطاعته وعبادته .

وعندما يخلص الأخصائي الاجتماعي لربه ويحرص على مرضاته فسوف يخلص بالتالى لمجتمعه الإسلامي ، ويسعى جاهدًا إلى إنمائه ، مضحيًا بكل وقته وجهده في سبيل البناء والإنماء ، مستعينًا بمبادئه الإسلامية لإنماء الشخصيات الإسلامية وتقويتها ، وبالعلاج الإسلامي في بناء المجتمعات وتعلية بنائها ، وعندما يعلو مجتمع المحبة الإسلامية ، وتتوثق رابطة العلاقة الأخوية ستنجح الخدمة الاجتماعية في تحقيق أهدافها .

وبعد أن يطبق الأخصائي الاجتماعي مبدأ الإخلاص على نفسه ينتقل إلى ممارسته وتطبيقه على عملائه بحيث يعلمهم الإخلاص عن طريق التقمص والامتصاص بعد أن يصبح القدوة الصالحة والمثال الطيب ، فيقتدون به ويتقمصون صفاته ؛ لأنه مخلص القول والنية والعمل ، والتعليم عن طريق الامتصاص والتقمص أكبر تأثيرًا من أي أسلوب آخر .

إن العميل عندما يأتي للأخصائي الاجتماعي طالبًا العون والمساعدة لا يأتي إليه إلا بعد أن تعقدت مشاكله وازدادت الضغوط المحيطة به داخليًا وخارجيًا وأصبح عاجزًا عن مواجهتها ، وكيف يواجهها وقد اضطربت شخصيته وتعطل تفكيره وساءت نفسيته ، إنه في هذه الحالة يحتاج فعلًا لمساعدة صادقة مخلصة تفتح أمامه طريق الأمل بعد أن ارتطم

بجدران اليأس ، والأخصائي الاجتماعي المسلم هو القادر على تقديم تلك المساعدة المخلصة التي يسعد بأدائها دون أن ينتظر من ورائها جزاءً أو شكورًا ؛ لأنه يبغي وجه اللَّه وحده ولا يبغي سواه ، فلا عجب إذن أن ضحى بكل وقته وجهده في سبيل إسعاد الآخرين ؛ بل يؤثرهم على نفسه التي لا يتأخر في التضحية بها هي الأخرى في سبيل اكتساب رضا اللَّه والفوز بمحبته .

المبدأ الثامن : العدل

« ... لقد اختلف أهل العلم في تفسير العدل ، فقيل : العدل لا إله إلا اللَّه ، وقيل : العدل الفرض ، وقيل : العدل استواء العلانية والسريرة ، وقيل : العدل الإنصاف ، والأولى تفسير العدل بالمعنى اللغوي وهو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ، فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن يكون عباده في الدين على حالة متوسطة ، ليست بمائلة إلى جانب الإفراط وهو الغلو المذموم في الدين ، ولا إلى جانب التفريط وهو الإخلال بشيء مما هو بالدين » (١) .

« أما المفكرون فينظرون إلى العدل – باعتباره فضيلة يؤدي بها كل ذي حق حقه دون أن يظلم أو يظلم – نظرات مختلفة باختلاف مشاربهم ، وضروب ثقافاتهم ، وصبغة بيئاتهم ، وألوان تربيتهم وطرائق سلوكهم في الحياة فمن غلب عليه جانب من جوانب الحياة ، وصبغت بيئته بلون ذلك الجانب رأى أن العدل هو تحقيق المساواة في هذا الجانب ، فالذي يسود بيئته ومجتمعه الذي يحيا بين أفراده الحياة المادية ، يرى أن هذه المادية هي مجال العدل الذي يصبح في نظر هؤلاء الماديين عملية حسابية تقوم على أساسها النظم الاقتصادية التي تعطيك لتأخذ منك ، وتأخذ منك لتعطيك ، دون نظر إلى قيم أخرى وراء ذلك .

والذي يسود بيئته ومجتمعه جانب الفكر والروح يرى أن العدل في هذا الجانب مقامه ومثواه ، فلا ينبغي أن تتغلب فكرة على فكرة ، ولا مذهب على مذهب ، بأمر خارج عن حقيقته ، ويجب أن تتاح لكل فكرة أو مذهب فرصة البيان الحر عن ذات نفسه حتى تعرف صلاحيته إن كان صالحًا للبقاء ، أو ينكشف زيفه فيذهب مع الذاهبين » (٢) .

---

(١) الشوكاني : فتح القدير ، الجزء الثالث ، مطبعة الحلبي بمصر ، الطبعة الثانية ، (١٩٦٤م) ، (ص ١٨٨) .

(٢) محمد الصادق عرجون : الموسوعة في سماحة الإسلام ، المجلد الأول ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة (ص ٢٦٥) .

والذي تسيطر عليه سياسة الأمم وقيادة الشعوب يرى أن العدل فضيلة الولاة والحكام والقادة من أصحاب السلطان وحماة القانون ، لا يشاركهم فيها أحد غيرهم ؛ لأنهم رعاة الناس وقادتهم الذين يسوسونهم بسلطان القانون ، يردون الحق إلى أهله ويأخذون من القوي إلى الضعيف ، ومن القادر للعاجز ، فلا تظلم نفس شيئًا في دائرة سلطانهم .

والذي تشغله الحياة الاجتماعية يرى أن العدل يقوم على تحديد علاقات عناصر المجتمع تحديدًا يرفع التمييز بين الأفراد والجماعات ويحقق المساواة بينهم في كل شأن من شؤون المجتمع وهكذا . وهكذا حتى حبس كل فريق فضيلة العدل في مجاله الخاص لا يراها إلا هناك » (١) .

أما الإسلام فقد نظر إلى العدل نظرة عامة شاملة كان لها أكبر الأثر في توجيهه التشريع العام الذي ينظم كافة العلاقات والمعاملات الإنسانية ، ولم تقف نظرة الإسلام للعدل عند حياة الناس ، ولكنها اشتملت الكون كله ، انظر قول اللَّه ﷻ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر : ٨٥] .

وقد نص القرآن على تكليف المؤمنين بأن يكونوا قائمين بالعدل بين الناس مع صرف النظر عن جميع الاعتبارات التي تحد من سلطانه ، قال اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٥] .

وقد كثرت في القرآن آيات الحث على العدل حتى جاء فيه (٢) : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] .

وبالعدل والنظام قامت السموات والأرض ، ومبدأ القرآن فيما يتعلق بالنظام الاجتماعي دائر على محور إقامة العدل ، وحسن تدبير الشؤون في سياسة الخلق .

---

(١) الموسوعة في سماحة الإسلام ، نفس المرجع السابق (ص ٢٦٦) .

(٢) محمود شلتوت : تفسير القرآن الكريم ، الأجزاء العشرة الأولى ، دار الشروق ، الطبعة السابعة ، (١٩٧٤م) ، (ص ٢٠٦) .

« ومن هنا جعل اللَّه العدل واسطة حبات العقد ، الذي كون به لرسوله منهج الدعوة الإصلاحية ، التي حملها إياه ، إنقاذًا للبشرية من ظلمات الجهل والبغي والعدوان » ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمُۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١٥] .

وضع اللَّه العدل هكذا ، وجعل إقراره بين الناس هو الهدف من بعث الرسل وإنزال الشرائع والأحكام ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد : ٢٥] ولقد نرى في ذكر الحديد هنا إيحاءً قويًّا واضحًا ، إلى أن إقرار العدل فيما بين الناس ، واجب إلهي محتم ، للقائمين به أن يستعينوا عليه باستعمال القوة.

لقد جاء الإسلام بفكرة العدل وحقق وجودها كمبدأ تأسيسي منظم للفضيلة الخلقية بمعنى العدالة المعروف منذ الأزل ، والمحقق لاتزان الكون وانسجامه بأوضح ما يكون عليه الاتزان وبأدق ما يتم فيه الانسجام [١] ، قال ﷻ : ﴿ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۡ ﴾ [الشورى : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وتوسعًا في إظهار معنى فكرة العدالة هذه بأوضح الصور عمد الإسلام إلى قرن معنى العدل بالحث على عمل الخير المتضمن لكل ما أمر اللَّه به . والنهي عن الشر المتضمن لكل ما نهى اللَّه عنه بالإضافة إلى المعاني السابقة التي تضمنها مبدأ العدل .

إن مبدأ العدل كما جاءت به الشريعة الإسلامية يأمر المسلمين جميعًا بالعدل المطلق حتى على النفس أو الوالدين أو الأقربين « وهم مطالبون بهذا العدل المطلق في العلاقات الفردية ، والعلاقات الدولية على السواء ، وهم مطالبون به قضائيًّا وقانونيًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا ، بغير تفرقة بين الأفراد أو الفئات أو الطبقات أو الأديان أو الأجناس أو الألوان أو اللغات ، أو الأغنياء أو الفقراء أو الأصدقاء أو الأعداء ، إنه العدل المطلق » [٢] .

ومن هنا كان العدل أصلًا من أعظم أصول التشريع في الإسلام ، بل هو أصل

(١) مؤيد الكيلاني : كيف انتشر الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت (ص ٦٥) .

(٢) الإسلام وحقوق الإنسان ، مرجع سابق ذكره (ص ٦١٧) .

الأصول في الإسلام فأينما تحقق العدل كان التشريع الإسلامي معه « فالعدل في الإسلام هو الميزان الذي تعتمد عليه السياسة التشريعية في هذا الدين القيم ، تلك السياسة التي تقصد إلى تحقيق ما يصلح الحياة ويرقيها وينمي الشعور بحب الخير والحق في قلوب الأفراد والجماعات ، ويجعل من الأمة وحدة متعاونة على البر والتقوى ، متكافلة في مصالحها » (١) .

هذا هو العدل كما جاء في القرآن ، أما في السنة الشريفة فقد مارسه الرسول ﷺ أحسن ما تكون الممارسة ، وبدأ بتطبيقه على نفسه وأهل بيته قبل أن يطبّقه على أصحابه وأتباعه ، وقصة المرأة المخزومية خير دليل على عدله « عن عائشة رضي اللَّه عنها أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول اللَّه ﷺ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ الرسول ﷺ فكلمه أسامة . فقال رسول اللَّه ﷺ : « **أتشفع في حدٍّ من حدود اللَّه تعالى ؟!** » . ثم قام فقال : « **إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم اللَّه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** » . (متفق عليه) ، وفي رواية : فتلوَّن وجه رسول اللَّه ، فقال : « **أتشفع في حدٍّ من حدود اللَّه ؟!** » فقال أسامة : استغفر لي يارسول اللَّه. قال : ثم أمر بتلك المرأة فقطعت يدها (٢) .

أما مع أهله وقومه فقد طبَّق عليهم مبدأ العدل عندما نزل عليه قول اللَّه تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ناداهم بطنًا بعد بطنٍ ، فقال : « **يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا ، يا بني عبد مناف ، لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من اللَّه شيئًا ، يا صفية عمة رسول اللَّه ، لا أغني عنكِ من اللَّه شيئًا ، يافاطمة بنت محمد ، سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنكِ من اللَّه شيئًا** » (٣) .

إن الرسول ﷺ مارس العدل وعلَّمه لأصحابه وأهل بيته كما مارسه وعلَّمه لأتباعه من المسلمين حتى يمارسوه بدورهم في جميع معاملاتهم .

قال النعمان بن بشير : أعطاني أبي عطية ، فقالت عمرة بنت رواحة : لا أرضى

---

(١) الموسوعة في سماحة الإسلام ، مرجع سابق ذكره ، (ص ٢٧٣ ، ٢٧٤) .

(٢) رياض الصالحين (باب تحريم الشفاعة في الحدود) ، (ص ٧١ ، ٥٧٢) .

(٣) عبد الله الشرقاوي : فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي لصحيح البخاري ، مطبعة مصطفى الحلبي ، (١٣٣٩هـ) ، (٢٥٠/٢) .

حتى تشهد رسول اللَّه ، فأتى رسول اللَّه ﷺ فقال : إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية ، فأمرتني أن أشهدك يا رسول اللَّه ، فقال الرسول ﷺ : « **أعطيت سائر ولدك مثل هذا ؟** » قال النعمان : لا ، قال الرسول ﷺ : « **فاتقوا اللَّه واعدلوا بين أولادكم** » ، فرجع أبي فرد عطيته [١] .

ولم يكتف الرسول ﷺ بتطبيق هذا المبدأ الإسلامي العظيم مع أهله وأصحابه، وأتباعه من المسلمين فحسب بل تعداه إلى ممارسته مع أعدائه من اليهود . فقد وجد من خيار أصحابه قتيلًا بين اليهود – هو عبد اللَّه بن سهل الأنصاري – فلم يَجُر على اليهود في تقدير الدية ، ولم يزد على الحق والعدل ، بل طلب ديته مائة ناقة ، كما كان العرب يفعلون في الوقت الذي كان أصحابه في حاجة إلى بعير واحد يتقون به [٢] .

ولقد استقى النبي ﷺ العدل من التربية الإلهية والأخلاق القرآنية التي أعدته ليحمل مشعل الإنارة لظلمات الدنيا ، وصار مبدأ العدل من المبادئ الإسلامية التي صارت راسخة القواعد ، ثابتة الأصول تخدم الذات البشرية وترأف بها أنى كان وضعها بل حتى ولو كانت من غير أهل الإيمان .

وإذا كانت الأخلاق القرآنية والتربية الإلهية أعطت لمبدأ العدل كل هذا الاهتمام أليس هذا دليلًا كافيًا على قيمته الإنسانية ؟ إن المبادئ الإسلامية كلها بصفة عامة ومبدأ العدل بصفة خاصة تهدف إلى بناء الشخصية الإسلامية وإنمائها ، وبنموها ينمو المجتمع ويرتفع بناؤه .

والخدمة الاجتماعية الإسلامية تسعى لتحقيق نفس الهدف ، ولذلك جعلت من تلك المبادئ مبادئًا لها ومن العلاج الإسلامي منهجًا لها ، ولذلك تعد جيلًا من الأخصائيين الاجتماعيين المؤمنين لممارسة العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية ، حتى يمارسوا الخدمة الاجتماعية الإسلامية عن اقتناع كامل وعقيدة قوية راسخة ؛ لأنها مهنة شاقة تحتاج إلى صبر ومثابرة ؛ لأن الممارس لهذه المهنة السامية يعرف جيدًا أنه لا بد أن يكون مثالًا صالحًا وقدوة طيبة .

إن الأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي يبدأ بممارسة المبادئ الإسلامية وتطبيقها على نفسه أولًا ، ثم بعد ذلك يطبقها على عملائه حتى يشعروا بأن

---

(١) فتح المبدي ، مرجع سابق ذكره (ص ٣٢٩) .

(٢) عبد الحليم رضا عبد العال : الخدمة الاجتماعية المعاصرة ، (١٩٩٠م) ، (ص ١٦٥) .

هذه المبادئ ليست شعارات ترفع وليست كلامًا يقال ، ولكنها أسلوب يمارس بحيث يصبح التأثير قويًا والاقتناع كاملًا ، وعندها يسهل التعديل ويتم التغيير وتنجح الأهداف المأمولة للعلاج الإسلامي .

وعندما يمارس مبدأ العدل بين العملاء جميعًا ويتقبلهم كما خلقهم اللَّه لا كما يجب أن يكونوا بحيث لا يكون هناك تفرقة من أي نوع ، فكل العملاء متساوون في إنسانيتهم التي يقدرها الأخصائي الاجتماعي كل التقدير ؛ لأن القيمة الإنسانية هي أثمن شيء في الوجود وما وجد مبدأ العدل إلا للحفاظ عليها . ولذلك نرى الأخصائي الاجتماعي يحترم العملاء ويحافظ على كرامتهم عن طريق المعاملة العادلة ، فهو لا يتسرع في أحكامه ولا يدين عملاءه ، وإنما يدرس بدقة ويتأنى في الدراسة حتى تأتي أحكامه عادلة .

وممارسة مبدأ العدل تتطلب فعل الخير والمسارعة بتقديمه لمن يستحق سواء طلب من الأخصائي الاجتماعي أو تقدم به دون أن يطلب منه ما دام في صالح الفرد وصالح المجتمع ، وعندما يمارس الأخصائي فعل الخير فإنه لا يبغي من ورائه سوى وجه اللَّه ﷻ ولا ينتظر غير ذلك جزاء ، ولذلك يقدمه لكل الناس دون تميز لأحد على الآخر بعد أن استبعد كل ميوله الشخصية وأهوائه الذاتية وأصبح عادلًا منصفًا .

ولكي يكون الأخصائي الاجتماعي عادلًا منصفًا فهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحاول تغييره عملًا بقول الرسول ﷺ : « **من رأى منكم منكرًا فليغيره** ... » الحديث . وهذا ما يجعل الأخصائي الاجتماعي – عندما يتقبل الناس كما خلقهم اللَّه ويساوي بينهم – يرفض السلوك الخاطئ ويظهر رفضه واضحًا للعملاء ، وبعدها يبحث عن دوافعه وأسبابه تمهيدًا لعلاجه .

وعندما يمارس الأخصائي مبدأ العدل فإنه يساعد العملاء على أن يظفر كل ذي حق بحقه ، ويؤدي كل إنسان واجباته بأمانة وعدل ، فلا يجوع إنسان ويتخم آخر ، ولا يترف فرد في الأمة ويعيش غيره من إخوانه في الإنسانية على الكفاف والشظف ، ولا يعان كسول على كسله ، ولا يهضم عامل من عمله ، ويغبن كادح في أجره ، ولا يحابي قريب لقرابته ، أو صديق لصداقته ، بل يجب أن يتساوى الناس في إتاحة الفرص للعمل ، ثم يجزى كل عامل على عمله وجهده ، وما يقدم للحياة من منفعة تعود عليه وعلى المجتمع .

كما يجب على الأخصائي الاجتماعي ألا يتحيز لفكرة على أخرى حتى لو كانت فكرته ، كما لا يتحيز لديانة على أخرى حتى لو كانت ضد ديانته ، ولا يتحيز لجنس على حساب الجنس الآخر ، بل يجب عليه أن يكون منصفًا آمنًا صادقًا ، يزن كل شيء بميزان العدل الذي لا يخطئ .

كما يجب أن يكون مؤمنًا صادقًا بدون إفراط أو تفريط ، فلا يكون متشددًا متزمتًا (فلا رهبانية في الإسلام) ولا يكون متساهلًا لينًا بما يضعف إشراقة الروح ، بحيث يكون لا صلبًا فيكسر ولا لينًا فيعصر ؛ لأن الإسلام ينظر إلى الإنسان نظرة إنسانية تتطلب تحقيق العدل بين جسمه وروحه ، فميزان العدل يبغى شخصية متزنة متكاملة .

كما يجب على الأخصائي الاجتماعي وهو يمارس مبدأ العدل أن يسعى إلى تدعيم العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الأفراد والجماعات برباط المحبة الأخوية فيسود التعاون والعدل والمساواة ، فلا يشعر فرد بأنه مغبون في نيل حقوقه لعقيدة ، أو لون ، أو مذهب ، أو فكرة ، ولا تشعر جماعة في الأمة بالظلم يقع عليها من أجل دين أو فكرة أو مذهب ، ولا يسمح لفرد أو جماعة أن يقصر في أداء واجباته نحو المجتمع الذي ينتمي إليه ، فالعدل أخذ وعطاء ويسر وعناء ، وإذا ساد العدل في أي مجتمع فستصبح تربته صالحة للنماء وستنمو فيه الحرية والإخاء والمساواة ، وعندها يصبح العدل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء .

المبدأ التاسع : مكارم الأخلاق

إذا حسنت الأخلاق ، وظهرت الأذواق ، وصلحت الأنفس ، وتعودت على المبادئ الإسلامية الحقة ، وصارت لها مبدأ وعقيدة تمارس بالقول والعمل ؛ كان أصحابها قدوة لمن يسمع قولهم ويطيع أمرهم .

وقد سأل رجل رسول اللَّه ﷺ عن حسن الخلق ؛ فتلا قوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، ثم قال ﷺ : « **هو أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك** » .

كما عرفه الحسن قائلًا : (حسن الخلق : بسط الوجه ، وبذل الندى ، وكشف الأذى) ، وقال علي رضي الله عنه : (حسن الخلق في ثلاث خصال : اجتناب المحارم ، وطلب الحلال ، والتوسعة على العيال) . وقال الواسطي : هو إرضاء الخلق في السراء والضراء .

لقد بلغ من أهمية هذا المبدأ الإسلامي العظيم أن الرسول ﷺ كان يقول في دعائه :

« **اللَّهم كما حسنت خَلقي ، اللَّهم جنبني منكرات الأخلاق ، اللَّهم اهدني لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت** » [١] هذا هو دعاء الرسول ﷺ الذي اصطفاه ربه وكرَّمه ، وتعهده في طفولته وشبابه إلى أن اختاره ليكون مبشرًا ونذيرًا ، فربَّاه أشرف تربية وأدَّبه أحسن تأديب ، وقال فيه تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، وقال : إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق** » .. وفي حديث أبي ذر الذي رواه الترمذي وصححه ، « **وخالق الناس بخلق حسن** » ، وعن ابن عمر مرفوعًا سئل رسول اللَّه ﷺ : أي المؤمنين أفضل ، قال : « **أحسنهم خلقًا** » ورواه ابن ماجه ، قال الحسن البصري : حقيقة حسن الخلق ، بذل المعروف ، وكف الأذى واحتماله ، وطلاقة الوجه ، رواه الترمذي [٢] .

وللرسول ﷺ في هذا أحاديث كثيرة ، منها قوله :

« **إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا ، الموطؤون أكنافًا ، الذين يألفون ويؤلفون** » ، وقوله : « **إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم بالليل الظامئ بالهواجر** » ، وقوله : « **من سعادة المرء حسن الخلق** » ، وقوله : « **أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى اللَّه وحسن الخلق** » ، وقوله : « **إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق** » [٣] .

وكما اهتمت الشريعة الإسلامية كل هذا الاهتمام بمبدأ مكارم الأخلاق فقد نهت عن سوء الخلق ونفَّرت منه ، وكما كان الرسول ﷺ شغوفًا بمكارم الأخلاق فقد فهم من بعض أحاديثه أن سوء الخلق يمحق الحسنات ، ويبطل الطاعات ، فقد قيل له : إن فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وهي سيئة الخلق ، تؤذي جيرانها بلسانها ، فقال : « **لا خير فيها ، هي من أهل النار** » وقال : « **سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل** » . وقال : « **إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم** » [٤] .

ومن حسن الخلق أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، وتكرم ضيفك ، وتكرم

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب المدنية : (٢٤٤/٤) .

(٢) الحديقة اليانعة والبروق اللامعة ، مرجع سابق ذكره (ص ٢٥٩) .

(٣) الشيخ علاء الدين المتقي بن حسام الدين الهندي : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، مطبعة دائرة المعارف النظامية بجيد آباد ، (١٣١٢هـ) ، (٣/٢) .

(٤) إحياء علوم الدين ، (٤٣/٣) .

جارك ، وتقول خيرًا أو تصمت ، وتصبر على الأذى ، قال ﷺ : « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا** » . إن الشريعة الإسلامية نصَّت على الأخلاق الكريمة كمبدأ من أهم المبادئ الإسلامية وأعطته كل هذا الاهتمام ؛ لأنها تدرك جيدًا أن الأخلاق الكريمة عليها مدار الأمور كلها ، فأي أمر في الحياة لا يصاحبه حسن الخلق سوف لا يكون مقبولًا ولا نافعًا .. وأي عمل جاء مع الخلق الكريم كان موصلًا للغاية محققًا لأهدافه مقبولًا عند تطبيقه وتنفيذه .. وأي أمة توافر لها حسن الخلق في أفرادها كانت أمة متماسكة مترابطة تسودها المحبة والوئام .. متفرغة للبناء والنماء والرخاء .

والخدمة الاجتماعية الإسلامية تهدف من وراء تطبيق المبادئ الإسلامية إلى تحقيق أهداف العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية عن طريق تقوية الشخصية وإنمائها ، وعندئذٍ يصبح الإنسان قادرًا على أداء أدواره الاجتماعية وقادرًا على التوافق في المجتمع .

ومكارم الأخلاق من أهم المبادئ التي تساعد على تحقيق هذه الأهداف فعندما يقابل الأخصائي الاجتماعي العميل الذي يحضر إليه طالبًا العون والمساعدة - بالبشاشة والترحاب فإنه يدخل السرور على نفسه ويشعره بالراحة والطمأنينة ؛ لأن الوجه البشوش المبتسم يساعد على ذلك ، وكذلك المقابلة التي تتصف بالترحاب والاهتمام تشعر العميل بصدق مشاعر المودة والمحبة التي هو في مسيس الحاجة إليها بعد أن صارت المشكلة التي يعاني منها تسبب له الكثير من المشاعر السلبية ، والتي يحرص الأخصائي الاجتماعي كل الحرص على تخليصه منها وامتصاصها .

ومن مكارم الأخلاق الصبر واحتمال الأذى ، ومهنة الخدمة الاجتماعية مهنة شاقة ومتعبة لمن يخلص لها ويمارسها بأمانة وصدق ؛ لأنه سيبذل فيها كل جهده ويضحي فيها بكل وقته ويرهق فيها جسميًّا وصحيًّا ونفسيًّا في بعض الأحيان ؛ لأنه سيقابل العديد من العملاء مختلفي الطباع والبيئات ، فمنهم من يعامله بجفاء ، ومنهم من يتطاول عليه بسبٍّ أو أذًى ، والأخصائي الاجتماعي محتمل لكل ذلك وصابر عليه ؛ لأنه يعرف دوافع سلوك العميل ويقدِّر ظروفه الصعبة ويقدِّر ما يعانيه من ضغوط داخلية وضغوط خارجية قد يحتملها أحيانًا وقد لا يحتملها أحيانًا كثيرة ، وعندها تفلت أعصابه فتجعله يعامل الأخصائي بمثل هذه المعاملة السيئة .

والأخصائي الاجتماعي - الذي يمارس العلاج الإسلامي ويطبق مبادئه - من دم ولحم كبقية البشر ، وينفعل ويثور وقد يعاني من بعض الضغوط هو الآخر ولكن مبادئه

الإسلامية وعلى رأسها مبدأ الأخلاق الكريمة تتطلب منه الحُلْم والصبر وتحمل الأذى ؛ ولذلك نجده يتحكم في مشاعره ولا يقابل ثورة العملاء بثورته ولا يقابل ضيقهم وتذمرهم بضيقه وتذمره ، بل نراه على العكس من ذلك بشوش الوجه هاشًّا في كلامه حليمًا في تصرفاته وعندئذٍ ينجح في امتصاص مشاعرهم السلبية ويخلصهم من ضيقهم وتوتراتهم فيشعرون بالراحة ويحسون الأمن والطمأنينة .

ولو لم يلتمس الأخصائي الاجتماعي لعملائه العذر ، ولو لم يقدر مشاعرهم لوجدناه يتحامل عليهم ويقسو عليهم في المعاملة ، وهذا يتنافى مع مبدأ مكارم الأخلاق ، الذي يتطلب منه اللين في المعاملة ، وكف الأذى عن الناس بصفة عامة وعن عملائه بصفة خاصة ، وذلك اقتداءً برسول اللَّه ﷺ الذي قال له ربه ﷻ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ولذلك عندما يمارس الأخصائي مبدأ مكارم الأخلاق تجده حريصًا على أن يكون لبقًا في كلامه ، ولينًا في تعامله ، صادقًا في كل ما يقول ويفعل ، لا يعطي لأحد وعدًا إلا إذا كان قادرًا على تنفيذه ، ولا يتكلم كثيرًا فخير الكلام ما قل ودل ، وخصوصًا وأن طبيعة عمله تتطلب منه أن يسمع أكثر مما يتكلم ، حتى يستطيع دراسة الموقف بعمق ووعي وبعدها ينجح في تشخيصه وعلاجه . وليس معنى قلة كلام الأخصائي الاجتماعي التعالي والتكبر على عملائه ، بل المقصود من ذلك عدم الثرثرة وعدم التدخل فيما لا يعنيه ؛ لأن مكارم الأخلاق تتطلب منه العمل الكثير بدلًا من كثرة الكلام ، ولذلك نراه يتفانى في عمله ويضحي في سبيله بكل مرتخصٍ وغالٍ ، وبالإضافة إلى أنه يعمل بما يعرف ، فهو يعمل بممارسة المبادئ الإسلامية ويعمل بممارسة أساليب العلاج الإسلامي الذاتية والبيئية ، فثمرة العلم هي العمل ، ولا فائدة من علم لا يستفاد منه ولا يعمل به .

وعندما يمارس الأخصائي الاجتماعي مبدأ مكارم الأخلاق فإنه يحب كل الناس ويتفانى في خدمتهم ويحب لهم ما يحبه لنفسه حبًّا للَّه وفي اللَّه لا يبغي من ورائه جزاءً أو شكورًا ، وعندئذٍ ينجح في تكوين علاقة المحبة الأخوية التي يعتمد عليها العلاج الإسلامي في تغيير الأفراد وتعديل سلوكهم – وبخاصة مع العملاء الذين حرموا من الحب ولم يتذوقوا طعم المودة والحنان نتيجة الخبرات السيئة التي مروا بها مع من تعاملوا معهم في مراحل العمر المختلفة ، مما ترتب عليه الكثير من مشاعر الكراهية والعداء للناس وللمجتمع .

المبدأ العاشر : التقوى

قال اللَّه ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ [لقمان : ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] ، وقال : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ٧٦] .

إن اللَّه يأمرنا – في هذه الآيات – بتحصيل التقوى ح لأنها الصورة العملية الراشدة للعقيدة ، يدين بها الإنسان .

والتقوى كمبدأ إسلامي مهم حركة دافعة ثائرة على الفساد والظلم ، تفتح أمام الإنسان باب الترقي وتصعد به إلى مجالات الكمال ، وتغزو به مواطن العزة والسيادة . إنها ليست حركة ضعيفة باهتة ، ترضى بالضعف والذل والتواكل والخنوع ، هي مد زاحف ومواكبة جادة لمعالي الأمور وعظائم الشؤون ؛ لأن التقوى سلاح عزة ، وطريق فلاح ، ولذلك قال رسول اللَّه ﷺ : « **من سرَّه أن يكون أكرم الناس فليتق اللَّه** » ، وقال وهب بن منبه : الإيمان عريان ولباسه التقوى ، وقال لقمان لابنه : « يا بني اتخذ تقوى اللَّه تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة » .

التقوى امتثال الأوامر واجتناب المناهي ، والورع ترك ما يخشى ضرره في الآخرة ، وقد قرن اللَّه التقوى مع الصلاة في مواضع من كتابه ، وتكون التقوى في الظاهر والباطن ، ففي الظاهر تقوى العين غضها عن الحرام وحفظها عما لا تؤمن عاقبته ، وتقوى اللسان حفظه عن فضول الكلام ، والمتقي ينظر في الكلام قبل النطق به ويترك ما لا فائدة فيه [١] .

والتقوى في الأصل – ومثلها الاتقاء – هي اتخاذ الوقاية وهي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴾ [الإنسان : ١١] . ولأن التقوى فيها معنى الوقاية ، قال الإمام علي ﷺ : « كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول اللَّه ﷺ أي : جعلناه وقاية لنا من العدو على الشدة ، وكذلك جاء في الحديث : « من عصى اللَّه لم تقه من اللَّه واقية » ، والتقوى في الشرع : جعل النفس في وقاية من عذاب اللَّه تعالى وغضبه باتباع أوامره ولزوم طاعته وتجنب معصيته ، والأصل في التقوى أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يخشاه من ربه تقية ، وذلك بفعل الطاعات واجتناب المحرمات .

---

(١) الحديقة اليانعة والبروق اللامعة ، مرجع سابق ذكره ، (ص ٢٦٠) .

« وليس الإيمان مجرد تصديق بوحدانية اللَّه وملائكته وكتبه ورسله والبعث فقط ، وإنما هو فوق ذلك التزام بأوامر اللَّه ، وانتهاء عن حرمات اللَّه ، وخوف من حدود اللَّه ، وحرص على صون حرمات الناس وحمايتها من الاعتداء عليها ، وليعلم الناس أن في اتقاء المحارم سعادة ، ما بعدها سعادة ، وقرب من اللَّه إلى أبعد الحدود ، فمن اتقى المحارم كان أعبد الناس » (١) .

وموجبات التقوى ستة عشر (٢) :

الهدى ، لقوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] .

والنصرة ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

والولاية ، لقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية : ١٩] .

لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ٧٦] .

ومغفرة الذنوب وتكفير السيئات ، لقوله تعالى : ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

والمخرج من الغم وجلب الرزق ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢، ٣] .

وتيسير الأمور ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٤] .

وغفران الذنوب وإعظام الأجور ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق : ٥] .

وقبول الأعمال ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

والفلاح ، لقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

والبشرى ، لقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [يونس : ٦٣، ٦٤] .

ودخول الجنة ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [القلم : ٣٤] .

والنجاة من النار ، لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٧٢] .

---

(١) دراسات في السنة النبوية الشريفة ، مرجع سابق ذكره ، (ص ٣١١) .

(٢) الحديقة اليانعة والبروق اللامعة ، نفس المرجع السابق ، (ص ٢٦١) .

والفوز بحدائق وأعنابًا ، وكواعب أترابًا ، وكأسًا دهاقًا ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ [النّبأ: ٣١] .

ونفي السوء والحزن ، لقوله تعالى : ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر: ٦١] .

ودرجات التقوى خمسة : أن يتقي العبد الكفر وذلك مقام الإسلام .

وأن يتقي المعاصي والحرمات وهو مقام التوبة .

وأن يتقي الشبهات وهو مقام الورع .

وأن يتقي المباحات وهو مقام الزهد .

وأن يتقي حضور غير اللَّه على قلبه وهو مقام المشاهدة .

كذلك فإن هذا المبدأ الإسلامي العظيم يحتاج إلى الصبر ؛ لأن المسلم التقي يحتاج إلى جرعات وجرعات من الصبر الحازم ، والعزم الصارم ، حتى يتخطى العقبات الكأداء ، ويعبر جسور المشقات ، ليحظى بعد ذلك بالراحة الكبرى ، راحة الأنس باللَّه والاحتماء به ، والحياة في كنفه ، ولن تتم تلك الراحة الكبرى إلا على جسر من التعب وجرعة كبيرة من الصبر .

وإذا نظرنا إلى أهداف الخدمة الاجتماعية لرأينا نفس المبادئ ونفس الأهداف ، ولذلك صححت مسيرتها وعدلت من أساليبها الفنية وعادت إلى أصولها لتظهر من جديد كخدمة اجتماعية إسلامية تمارس العلاج الإسلامي كما جاء في القرآن ، وكما وضحته السنة النبوية الشريفة وكما ذكره السلف الصالح ، معتمدة في تحقيق أهدافها العلاجية على تلك المجموعة السامية العظيمة من المبادئ الإسلامية التي صارت مبادئًا لها ، تعتمد عليها كركيزة قوية راسخة تساعدها على النجاح في ممارسة العلاج الإسلامي لمواجهة المشكلات الاجتماعية .

ولذلك فإن الأخصائي الاجتماعي الإسلامي عندما يجعل من التقوى مبدأً أساسيًا من مبادئه ويبدأ في ممارسته ، فإنه يتطلع بأنظاره إلى الرسول الكريم ﷺ كأسوة عظيمة وقدوة صالحة يسير على منوالها ، فقد كان الرسول ﷺ أول من مارس العلاج الإسلامي وأول من طبَّق مبادئه ، وبذلك مهَّد الطريق ووضع عليه الأضواء الكاشفة ليسير في نورها ويهتدي بها كل من يريد أن يعالج المشكلات الاجتماعية بشتى صورها وبجميع أنواعها ، فالعلاج الإسلامي كما تعلمناه من الرسول ﷺ كفيل بمواجهة كل

هذه المشكلات وقدير على علاجها .

والأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي عندما يطبق مبدأ التقوى فإنه يحرص على الالتزام بأوامر اللَّه ويعمل على مرضاته في كل سلوكه وتصرفاته وينتهي عن محرماته ويبتعد عن كل ما يغضبه ، ويطهر قلبه بالإيمان حتى يعرف اللَّه بصفاته ، ويراقبه في كل حال ، ويخاف منه ويرجوه ، ويرغب فيما عنده ، ويرهب مما لديه ، ويعتمد عليه في كل الأمور .

وعندما يمارس العلاج الإسلامي ويطبق مبادئه مع عملائه الذين يأتون إليه طالبين عونه ومساعدته يحرص على صون حرماتهم وخصوصًا وأنه بحكم عمله سيطلع على الكثير من أسرارهم ، وسيعرف المكنون من صفاتهم وسماتهم الشخصية ، وسيأتمنونه على أنفسهم وبيوتهم ، ولذلك يلزمه مبدأ التقوى بالأمانة الكاملة حتى يثقوا به ويطمئنوا إليه ، ومن التقوى أيضًا أن يكون صادقًا معهم كل الصدق ، فلا يقول إلا صدقًا ، ولا يعد إلا بما هو قادر على تنفيذه ، وكما يمارس تقوى اللسان يمارس أيضًا تقوى العين فيغض بصره عن الحرام ويحفظه عما لا تؤمن عاقبته، ولا يسعى إلى أي عمل إلا إذا تأكد من أنه يرضي اللَّه كما يحب عملاءه حبًا خالصًا للَّه وفي اللَّه ، وعندما يحبهم سيخلص في مساعدتهم وسيضحي بكل جهده ووقته في سبيل علاج مشكلاتهم وإسعادهم ، ولن يستطيع الأخصائي الاجتماعي الوصول إلى هذه الدرجة العظيمة من الإخلاص إلا إذا قوي إيمانه ، وازداد يقينه ، ورسخت خشيته من اللَّه ، واشتدت مراقبته له .

ومن يطبق مبدأ التقوى لا بد أن يكون حليمًا ، فيتقبل الناس بعيوبهم ولا يضيق بهم مهما كان سلوكهم ، فيقدِّر مشاعرهم ويتعاطف معهم ، وعندما يعفو عن أخطائهم وهو قادر على الانتقام بما في يده من سلطة ويصبر على مضايقاتهم ، ويتسامح عما يصدر منهم ، سيشعرون بمدى حبه الخالص ، ومدى حرصه على مساعدتهم وسعيه إلى إسعادهم ، عندها سيقتنعون به مثلًا طيبًا يُحتذى به ، وقدوة صالحة يتأثرون بها ، فيطيعون أوامره وينفذون مشورته ويتبعون إرشاداته وتوجيهاته ويصبح قادرًا على تغييرهم .

كما أن مبدأ التقوى يتطلب من الأخصائي الاجتماعي أن يكون صابرًا ومزودًا بجرعة كبيرة من الصبر ؛ لأن مسؤولية العلاج الإسلامي مسؤولية كبيرة وممارسته عملية شاقة ومتعبة ؛ لأنها تهدف إلى تغيير الإنسان وهو ليس بالأمر الهيِّن اليسير ، ولن يستطيع الأخصائي الاجتماعي ممارسة الصبر وتحمل مشقته إلا إذا اتقى اللَّه حق تقاته

وعمل بقول الرسول ﷺ : « **من سرَّه أن يكون أكرم الناس فليتق اللَّه** » وبتقوى اللَّه يكمل إيمانه ويقينه ويثبت عمليًّا خوفه من اللَّه ومراقبته ، ويصدق فعلًا في حب اللَّه وترك كل شيء من أجله حتى لا يراه حيث نهاه .

وصدق اللَّه ﷻ في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

* * *

obeikandl.com